2276
.93375
.313

2276.93375.313
al-Umawī, Shakīb
Asdā' al-naghm

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072246232

شكيب الأموي
أصداء النغم

هدية من المؤلف
للدكتور أحمد زكي أبو شادي

شكيب الأموي

al-Umawi, Shakib

Aṣdā' al-naghm

أصداء النغم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود وبجواره حضرة صاحب السمو الملكى الامير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية وفى أعلى الصورة الأمير فيصل نائب جلالة الملك ووزير الخارجية

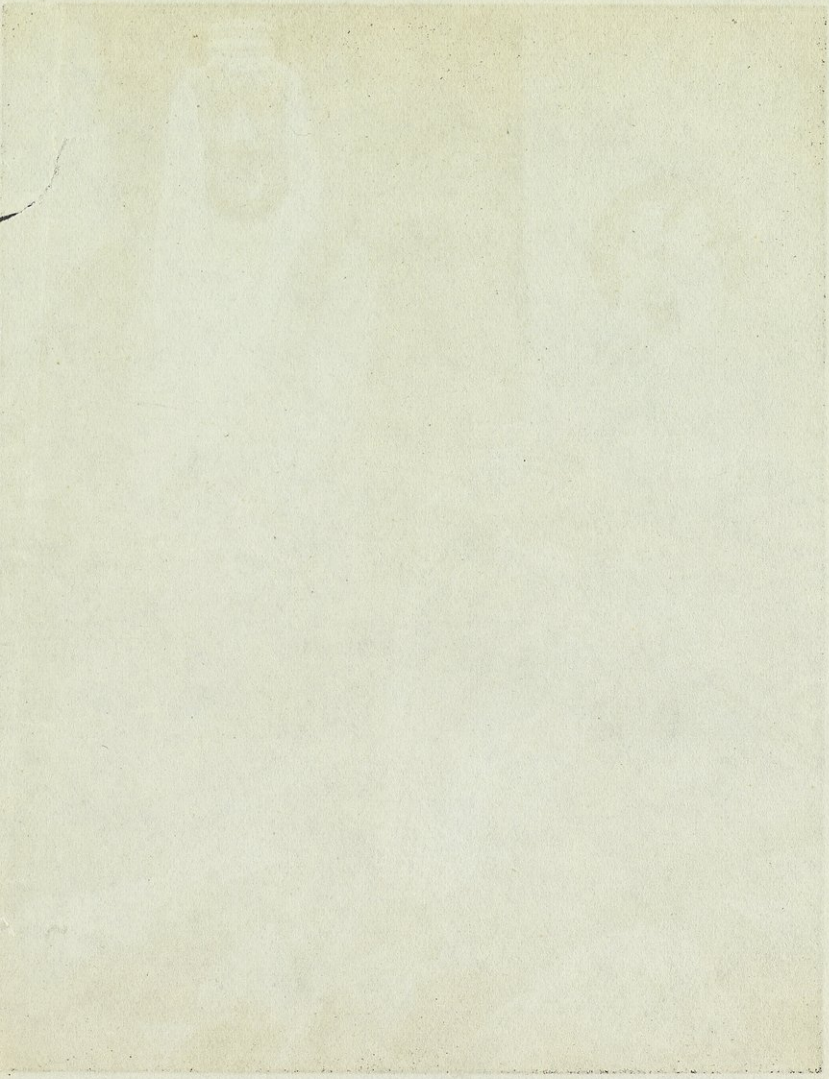

سمو الأمير نواف بن عبد العزيز آل سعود أمير الحرس الملكى والقصور ويرى هنا موفداً من قبل جلالة والده المعظم لتهنئة السيد كميل شمعون بمناسبة انتخابه لرياسة الجمهورية اللبنانية .

65-4

2276
.93375
.313

الإهداء

إلى سمو الأمير الفريق نواف بن عبد العزيز آل سعود

أهدى هذا الكتاب ؟

شكيب الأموى

كلمة المؤلف ..

الدم الذى لن يجف !!

أثناء مرافقتى لسمو الأمير نواف بن عبد العزيز فى جولته فى الأقطار العربية تعرفت بكثير من الناس . . رسميين وغير رسميين . . كبراء وعاديين . . سواء فى القصور أو فى الوزارات ومناصب الحكم . . أو فى صالونات الإقطاعيين أصحاب المعالى والسعادة والعزة . . أو فى صالونات الحلاقة . . فى المقاهى الاريستوقراطية أو البلدية . . سواء ركبت « كاديلاك » أو عربة كارو . . وسواء مشيت بين من يمشون على الأرض مرحاً أو من يمشون كما يمشى الكادحون الذين يحصلون على الرغيف بعرق الجبين وبشق الأنفس . . وسواء أكانوا رجالا مكتملى الرجولة . . أم نساء مكتملات الأنوثة . . وسواء أكانوا طلاب مدرسة ابتدائية أم ثانوية أم كلية أو جامعة . . أم أطباء ومحامين . . أم أبناء شوارع . . حتى العاطلين عن العمل . . وبعبارة أدق وأخصر . . كل طبقة من طبقات الأمم العربية فى مختلف أقطارها وأمصارها . . شاغلها الأكبر . . وهمها المشترك . . هو :

النكبة المشتركة . . فلسطين . .

وقد لمست كما يلمس كل عربي حر مخلص . . أثر هذه النكبة فى نفسية الشعوب . . ولمست أن رد فعل هذه الشعوب من هذه النكبة لابد وأن يتبلور . . وحين يتبلور لابد وأن يحدث أثراً بالغاً ، بالغاً جداً . . بعيد النظر جداً . ومن ير ويدرك يحسب حساباً لهذا الصدى قبل أن يستفحل . . فالشعوب العربية لن تهدأ أو تنام على ضيم . . وهى ماانفكت تطالب ساستها وقادتها وزعماءها أن يثأروا لكرامتها المهدورة وعرضها المستباح فى معركة فلسطين . .

ونحن نلهو بالقصص . . ولكن القصة الخالدة الكبرى هى قصة قيام إسرائيل بعد تبخرها من الوجود ألفى سنة . . فعلينا اللعنة جميعاً إلى أن تلغى إسرائيل من الوجود . . وتعود كما بدأت سيرتها الأولى . . إلى تيه لاينقذها منه حتى أضراب موسى وهارون ! ! . .

فإذا كان همنا الفرعى أن نقدم للقارىء صوراً مختلفة من أحوال مجتمعنا . . وإذا كنا نعطيه صورة صادقة من ألوان البؤس والحرمان والغش والخداع والإغراء والخيانة والرشوة . . فإننا دائما وراء مثل أعلى وأسمى . . لايمكن تحقيقها

إلا بمعرفة هذه الألوان والصور ودراستها . . إننا وراء قيام الأسرة الصالحة فى مجتمع صالح . . وأما أسس ودعائم قيام هذه الأسرة وهذا المجتمع . . فلا بد وأن تروها فى أحدى هذه السلسلة القصصية التى لن تنتهى . . وحين تتكون الأسرة الصالحة والمجتمع الصالح ياصديقى سنكون أكفاء لنعود أعزاء شرفاء محترمين قبل قيام إسرائيل . . وعندها لاتستهين إسرائيل بالعرب والمسلمين جميعا وتكتب على برلمانها : حدودك ياإسرائيل من الفرات إلى النيل ! ! . .

مطبعة الاعتماد بمصر ت ٤٥٥٤٥

الصحراء معهد للفروسة والبطولة والنجدة

حدثت فى الجزيرة العربية وقائع مفرطة فى غرابتها تعبّر عن مزايا سامية عرفت عن العرب من نجدةٍ وشهامةوفروسة واعتزازٍ بالنفس وجرأة وإقدام ومغامرة .

ونحن نسوق طائفة من هذه القصص علّها تكون عبرةً وعظة ونبراسا وعلّها توقظ المزايا والخلال الكريمة فى الجيل الجديد . وفى الوقت عينه تطلعك هذه الأقاصيص على نواح مميّزة للتقاليد العربية .

ش . ا .

مغوار مغرور ! !

حدثنى أحد كرام « الرس » قال :

منذ نحو ثلاثين سنة أمحلت أراضى قبيلة ما غربى الجزيرة ، وعند الجدب يتفرق سكان القبائل فى جهات شتى من الأرض. فأخذ شيخ من شيوخ القبيلة ، ولندعه « حسان » خيامه وإبله وبقية مايملك ، وسار بأهله شمالا ، حيث الربيع والخضرة والعشب والحياة الجميلة الخلابة .

تقدم الشيخ حسان القافلة ، وأخذ يجوس فى خلال المنطقة مستكشفاً باحثاً عن (ديرة) خصبة ذات مميزات جميلة تصلح

لكى يحط فيها رحاله. وما ابتعد بضعة فراسخ ، حتى لمح من بعيد شيخاً طاعنا فى السن بجانب فرس له ترعى الكلأ حوله ، فأقبل عليه وتقدم منه وحياه ، فرد عليه بأحسن تحية . ولست أدرى كيف تتسق الأرواح بعضها ببعض وكيف يتم التجانس والألفة بينها ، أو كيف يلذ للمرء أن يمزح أو يداعب غيره لأول وهلة أو أول لقاء ، ولا كيف يحترم المرء أو يهزأ أو يتهكم من فلان لأول وهلة أو أول لقاء ... وقد يكون منظر المرء أو مظهره هو الباعث على هذه التفاعلات النفسية قبل أن يتحدث معه أو يخاطبه ، ولكن متى جرى الحديث بينهما فقد يتغير التأثير والانطباع .

وغاية مانعلم ، أن « حسان » رغب فى أن يداعب هذا الرجل العجوز ويستحثه فتنحنح حسان وقال للشيخ : تنبه ياخيال ! فوثب العجوز على فرسه العجوز . وألهب ظهرها فأخذت تسابق الريح فى سهل منبسط فسيح ، وتبعه حسان يضرب بالسوط فرسه ويستحثها لتلحق بالفارس العجوز ولكن دون جدوى . وأخذت المسافة بينهما تتسع ، فكان حسان كمن يطلب الثريا فتعجزه ! . . كر العجوز عائداً ، فكر حسان . فكان هو السابق أول الأمر طبعا . وبعد قليل صارا متقاربين ثم صارا جنبا إلى جنب . فمد العجوز رمحه وكان

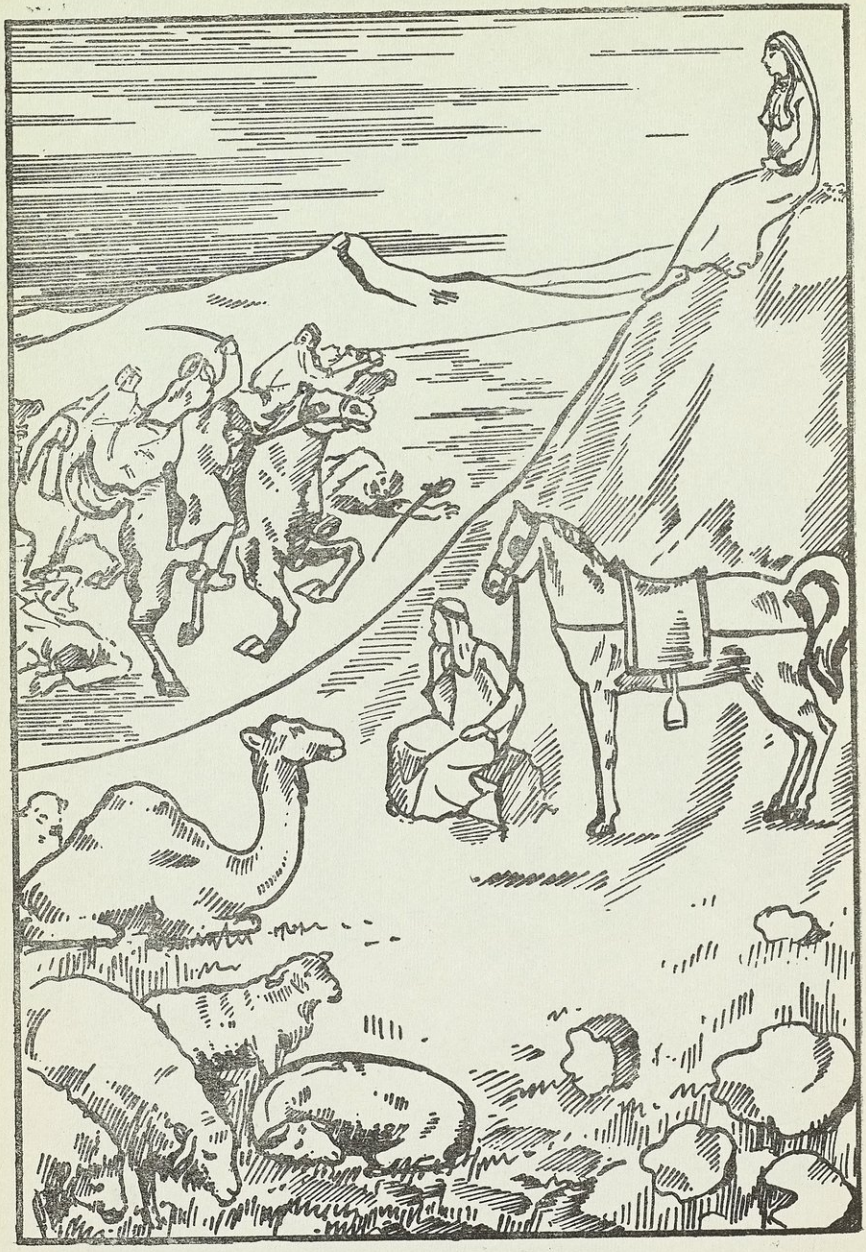

حسان إلى يمينه ، ودس الرمح تحت لحية حسان ثم نفضه وهزه هزاً رفيقا . فأخذت لحية حسان تهتز وتنتفض ! ثم جذب الرمح إليه ، ونخس فرسه ، فأصبح حسان اللاحق .

وما قصد العجوز من هذه المداعبـــة إلا أن يمزح معه ويدخل الرعب فى قلبه ويسترد لنفسه الهيبة الكاملة !

* * *

عاد العجوز منتشيا ، وكر فى شوط ثان .

فلحق به حسان معتزما أن يقتل العجوز إن استطاع طمعا فى فرسـه وتخلصا ممن أراد أن يفزعه ويرعبه ورغبة فى إهانته والتقدم عليه فى السباق .

فمد العجوز هذه المرة رمحه عن يساره، وهش لحية حسان، فأخذت اللحيـة تهتز دفعا وجذبا يدلان على ذعر ، وتجاوزه العجوز حذراً لأنه لمح فى وجهه إمارات الغـدر والوقيعـة ! فلم يكن من حسان إلا أن أجهد فرسه يريد اللحاق بخصمه الذى كان قبل دقائق يهزأ به ، ولـكنه قصر عما تشتهيه نفسه .

وتسابقا فى شوط ثالث !

وكان كل هم حسان فى هذا الشوط أن يكون ورفيقه جنبا إلى جنب حتى إذا ما أنس من العجوز غفلة جرد سـيفه أو

خنجره وطعنه طعنة نجلاء قاضية وفاز بالفرس التى هزمته وجعلته صغيراً فى عينيه مع أنه هو الفارس المغوار الصنديد الذى يعد من أكرم العرب وأشجعهم وأمضاهم وأكثرهم إقداما ، ومع أنه هو من فتيان عرب الجزيرة الذين ملأت سيرتهم الأفواه والأسماع !

وجرى السباق ، ولكن العجوز لم يكتف فى هذه المرة بأن هز لحية حسان ، بل لمس بالرمح رأسه لمساً رقيقاً وقال له: « يافتى : والله إن لم تكف عن عبثك وتذعن ، وتتخل عن شيمة الغدر فيك ، لأضربنك ضرباً لامزاح فيه فأفقدك حياتك وأفصل رأسك الموسوس هذا عن جسدك ! »

فوقف حسان، وطلب منه الأمان فأمنه وقال له : من أنت ومن أين أتيت ؟

فأجاب : أنا فلان وأهلى ورائى وكلنا راحلون إلى حيث الماء والكلأ لأن بلادنا أجدبت هذا العام .

. . .

فلازمه وسارا معاً قاصدين بيت العجوز .

ومن بعيد ، لمح حسان بيتين فقط . فاتجه العجوز نحوهما وحسان يتبعه حتى بلغاهما . وتبين حسان أن هذه القبيلة قوامها صبى يكاد يكون فى الخامسة عشرة من العمر هو ابن العجوز

رفيقه ، وعلى باب الخيمة وقفت فرس صغيرة . وفى الخيمة الأخرى عجوز آخر هو شقيق رفيقه العجوز وقد يكون أسن منه ، ولهذا ابنة فى الرابعة عشرة من العمر تمثل فتنة الصحراء ودلالها وربيعها النضر الريان .

فاضطربت نفس حسان ، وتملك عليه هذا الجمال جميع منافذه ، فلم يكن له بمثله عهد ، ومن ثم اعتزم أن يضرب خيمته إلى جوار خيامها ، وعاد إلى أهله وحط بهم هناك .

قال حسان فى نفسه : لابد من عمل أقدم عليه لأظهر فروستى وشجاعتى ومروءتى حتى أدنو من قلب هاته الغادة وأصبح أثيراً لديها تحبنى ويهوانى قلبها . فلم تكن أواصر القلوب ووشائج المهج ترتبط عند العرب إلا بهذه الخلال فتحكم أطرافها فهذه هى قرابين الحب ، وذلك هو مهر القلوب . ومن شاء الوجوه الصبوحة المليحة المشتهاه لم يغله المهر .

ولذلك ود حسان لو تعرضت قبيلة هذا العجوز المؤلفة من هذين البيتين أو قبيلته هو لآغارة أو غزو حتى يبرهن على شجاعته وإقدامه فيشتت شمل الغزاة ويستجمع شمل هذا القلب النابض بالحياة .

وأخذ يتحين الفرص .

. . .

ظل حسان يتردد على العجوزين ويتودد إليهما ويستطيب شتى أحاديثهما ، وغاية مايتمناه أن يلمح فتاته حتى يشبع من بهاء جمال وجهها وقدها وعذب صوتها ، فيروى مافيه من ظمأ ووجد .

وذات يوم . . .

ذهب الفتى وابنة عمه هذه يسوقان الإبل إلى عين ماء على مبعدة بضعة فراسخ عن مضارب العجوزين . فرآهما حسان من بعيد ، وامتطى صهوة فرسه ولحق بهما كأنما خرج للنزهة أو للترويح عن النفس .

ولم تكد الإبل تبلغ العين ، حتى أغار عليها نحو خمسة وأربعين فارساً من قبيلة معادية وساقوها جميعاً أمامهم ، وعاد الفتى إلى أهله كاسف البال .

رأى حسان هذه الفرصة الذهبية فكيف يضيعها وهى غاية ما كان يتمنى . كان بالأمس يمنى النفس بأن يلمح الفتاة من بعيد، فكيف به الآن وقد صار أمامها وجها لوجه . فوثب حسان عليهم واشتبك مع الفرسان فى قتال دام عنيف ، فقتل منهم واحدا ، وحرص على أن يعود بفرسه إلى حيث الفتاة عساها تقول كلمة واحدة تشجيعاً له ، ولكن أحداً لم ينبس ببنت شفة .

. . .

فعاد حسان يثب على الغزاة وقتل ثانياً من بين صفوفهم ثم عاد بفرسه ، فلم ينبس أحد كذلك ببنت شفة .

وعاد ففعل مثل مافعل ثالثا ورابعا ، ودنا منها يقول لها : هذا إكراماً لك ياملیحة ! طامعاً فى أن تشجعه بكلمة أو تثنى عليه أو تقول له : بارك الله فيك . ولكنها بعد فترة صمت وقور نطقت قائلة : « ياولد ! إن كانت هذه شجاعتك ، فلست معيدا إلى الإبل ! فلإبل راعيها سيعود ليحل لجمها ويردها » .

وللمرة الثانية أحس حسان بأنه صغير فى عينى نفسه، وتذكر صاحب الخيمة الذى أراد أن يسخر منه وهو فى طريقه إلى هذا المكان . وتذكر اهتزاز لحيته وقرع رأسه بالرمح ! ثم تلفت فإذا الفتى الذى ظنه هارباً من الغزاة المغيرين يعود على فرسه يعدو حتى صار قريباً من ابنة عمه ، فأدار وجهه نحوها، وتوقف عن العدو لحظة . فانطلق لسانها يزغرد فى حلاوة زغرودة ذات رنين وجرس حبيبين وقالت . أنعم . . أنعم ! !

فلوح لها بسيفه المسلول ، وواصل عدوه ووثب على العدو.

وانطوى حسان على نفسه يشاهد المعركة المقبلة من بعيد .

أسفرت المعركه بعد وقت قصير عن قتل تسعة من الغزاة فنأى عنهم بعيداً وقال لهم بعد أن نكل بهم . ردوا الإبل وانجوا بأرواحكم . اتركوها لأهلها ، وإلا والله لن يسلم أحد منكم . .

لأقتلنكم جميعاً إذا لم تستجيبوا لنصحى . فلم يبالوا بما سمعوا . . ودارت المعركة ثانية . .

حمى وطيس القتال . . وكلما أوشكوا أن يظفروا به شدد عليهم النكير فجندل منهم واحداً أو اثنين . . حتى بلغ عدد قتلاهم فى الكرة الثانية عشرة ثلاثة وعشرين فلما وجدوا أمامهم فارساً لايقعقع له بشنان . . ولايمكن أن تناله سيوفهم . . أيقنوا جميعا أن الهلاك واقع فانهارت عزائمهم وخارت قواهم المعنوية . . وركن الباقون منهم على قيد الحياة إلى الفرار . . كل يطلب السلامة والعافية ! . .

. . .

رد التى الإبل مع الخيل التى قتل أصحابها إلى إبنة عمه . .

وتضاءل حسان وانكمش منطويا على نفسه . . وأصبح يطلب مخرجا أو مهربا من هذا الموقف ليتوارى عن عينى الفتى والفتاة ! . . فقال لها

سأتقدمكما لأبشر أبويكما بأننا قتلنا العدو وفككنا الإبل ! فقال الفتى : إمض .

عاد حسان إلى الخيمتين . . فوجد العجوز الذى تسابق وإياه فى الطريق إلى هذا الحى متكئا إلى جانب الموقد . .

يدخن غليونه . . وأخاه (أبا الفتاة) جالسا قربه . . يعد القهوة فلما أتاهما قال : أبشرا . . قتلنا العدو وفككنا الإبل . . وعدنا بها . .

قال العجوز : كم قوة العدو

قال حسان : ٤٥ فارسا

قال العجوز : كم قتلت أنت ؟

أجاب حسان : أربعة

قال : وابن أخي ؟ . . أجاب : ١٩ وهرب الباقون .

تغير لون العجوز واصفر وجهه . . واحمرت عيناه . . وارتعدت فرائصه . . وأخذ بيده قبضة رماد وذره فى وجه أخيه أبي الولد . . وقال له :

أنت تزوجت فلانة أم الولد . . لأنها جميلة فقط . . برغم أن أباها كان جبانا . . فولدت لك هذا الولد الذى ترى فعله الآن . . لقد قتل ١٩ من ٤٥ فقط . . فلو لحقت بهم أنا أو أنت لما أفلت منهم واحد . . لقد أطمعك الجمال . . ونسيت الشجاعة التى هى أصل فى تكوين أخلاق الرجال وفعالهم . . فلو تزوجت إبنة شجاع لفعل ابنك مثلك أو مثلى !

. . .

قال حسان حين سمع هذا الحديث : والله لن أبقى عند هؤلاء بعد الآن . .

وعاد إلى أهله . . فأخذهم ورحل بهم عن هذه البقاع كافة . وأخذ يبحث عن أرض أخرى بها ماءٌ وعشبٌ . . ولكن. لا يسكنها أو يجاورها قوم كهؤلاء .

يأكلن البرسيم !!..

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل ! !

هذه بلدة من بلدان هذه الصحراء المجيدة وعليها أميرها ولنسمه (سعيدا) وبالقرب منها بلدة أخرى أميرها هو ابن عم للأمير سعيد ولنسمه (سعدا) ولكن لهذا الأمير أخوة (وعزوه) كثيرون .

دخل الطمع نفوس هؤلاء واستضعفوا ابن عمهم وفى ليلة بيتوا النية وحزموا أمرهم عشيا وفاجأوا ابن عمهم سعيدا فى عقر داره مدججين بالسلاح يقدح الشرر من أعينهم وطلبوا

إليه أن يغادر مقر إمارته حالا وإلا أحاق به وبأهله السوء فلم يرد أن يثيرها حربا شعواء يمانية ولم يرد أن يقاوم ويعمد إلى سفك الدماء . ولعله فكر ودبر وقال فى نفسه : ولو أن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند ولكن سفك دم القربى أشد وقعا وأكثر إيلاما من ظلم ذوى القربى . وحمد الله فى نفسه أن الذين استولوا على إمارته هم من ذوى قرباه لا غرباء ولا أعداء فكثيرا ما يعمد المرء إلى تخفيف المصيبة الداهمة ، الطامة الكبرى بالتحليل الذى يناسب الأمر الواقع على علاته فسار وأهله فى جنح الظلام هائماً على وجهه يندب حظه العاثر وعدم حيطته للمفاجآت الرهيبة وقصد أميرا كان صديقا له ذا سعة وشهامة ولنسمه (نافحا) فحط رحاله عنده واستقر بعائلته فى كنفه .

ومضت بضعة أيام والأمير المضيف يسأل كل يوم عن الأمير الضيف اللاجىء فيقول بخير والحمد لله ولم يكن الأمير نافح يسأل سؤالا عابراً تقليديا عن ضيفه لأنه يعلم أن ضيفه حقيقة بخير لا ينقصه من الخير والعز شىء ذلك أنه كان صاحب إمارة وذا حول وطول وسعة وثراء وقدر أنه لابد حمل معه من أمواله ومقتنياته ما خف حمله وغلا ثمنه ولم يخطر بباله قط أنه خرج لا يملك من الدنيا شروى نقير ولكن الأنوف العيوف

كثيرا مايقنع بما يساور أفكار الناس وبما يشاع عنه من أنه لابد يملك شيئا ما لاعتقاده أن الناس لا يبالون بمن (كان) ذا عز ولكنهم يمجدون ويحترمون من هو (فى) عز مهما كان هذا العز يسيرا . ينسون الماضى سريعا ويمتثلون للحاضر حتى ولو كانت الثروة الحاضرة قائمة على إيلام الغير وبؤسهم وحرمانهم والحرام الذى يلهب الجنوب بسياط من نار إن لم يكن فى دنيا الكوارث عاجلا ففى عذاب السعير والويل والثبور آجلا .

كان عند الأمير نافح بستان خارج البلاد وفى الصباح الباكر أتى البستانى يوما للأمير قائلا : منذ أيام وأنا أرى فى صباح كل يوم برسيم البستان مسروقا ولا أرى أثرا لحيوان ولست أدرى من ذا يجرؤ على بستان الأمير . فقال الأمير: ترصد الليلة ودع الحراس ينتشرون فى أرجاء البستان لنرى من هو المغامر المستهتر الأثيم .

فرابط البستانى وحراسه وعند ماأرخى الليل سدوله ومضى من الليل نصفه أقبلت أربع نسوة على البستان يتلفتن يمنة ويسرة ثم دخان ببطء وحذر ووجل وارتباك ولما اطمأنن إلى أن عينا لاتراهن غصن فى البرسيم ورحن يأكلن منه بنهم إلى أن ملأن بطونهن . ولما هممن بالخروج من البستان قالت إحـــداهن

ـــ ويغلب على الظن أنها أم البنات الثلاث: يا بنات، هل أخذتن فطورا لأبيكن ؟ قلن : نعم . هيا بنا فلم يرنا أحد.

وكان البستانى يرى ماحدث ويسمع ماقيل .

أصبح الصباح فروى البستانى للأمير نافح ماحدث. أسف الأمير أيما أسف وقال : كيف يأتينى هذا اللاجىء الكريم الذى كان أميرا مثلى وهو وعائلته جائعون يكاد الجوع يقطع أحشاءهم جميعا وأنا لاأدرى عن ذلك شيئا؟ وبعد هنيهة نادى ضيفه اللاجىء الأمير فجاءه فأخذه وسار به فى البستان يتحدثان ويأنسان وبعد قليل قال الأمير نافح لضيفه ممازحا : طرأت ببالى فكرة . سألعب معك الشطرنج فان غلبتنى دعوت عموم أهالى البلدة إلى وليمة عشاء فاخرة وإن غلبتك دعوت أنت إلى مثل هذه الوليمة . فقال له الأمير اللاجىء : أنا لاألعب الشطرنج وليس عندى فى دنياى شىء .

قال الأمير نافح لابد من أن نلعب . أنت أمير وأنا أمير ولابد من أن نقتل الوقت بتسلية بريئة كالشطرنج الذى هو لعبة العلية والطبقة الممتازة الرفيعة .

قال الأمير اللاجىء : ولكن نسقط الشرط . فقال مضيفه: نبقيه معلقا وسنرى ما يكون من الأمر ولماذا لانغامر العلك تكون الرابح آخر الأمر .

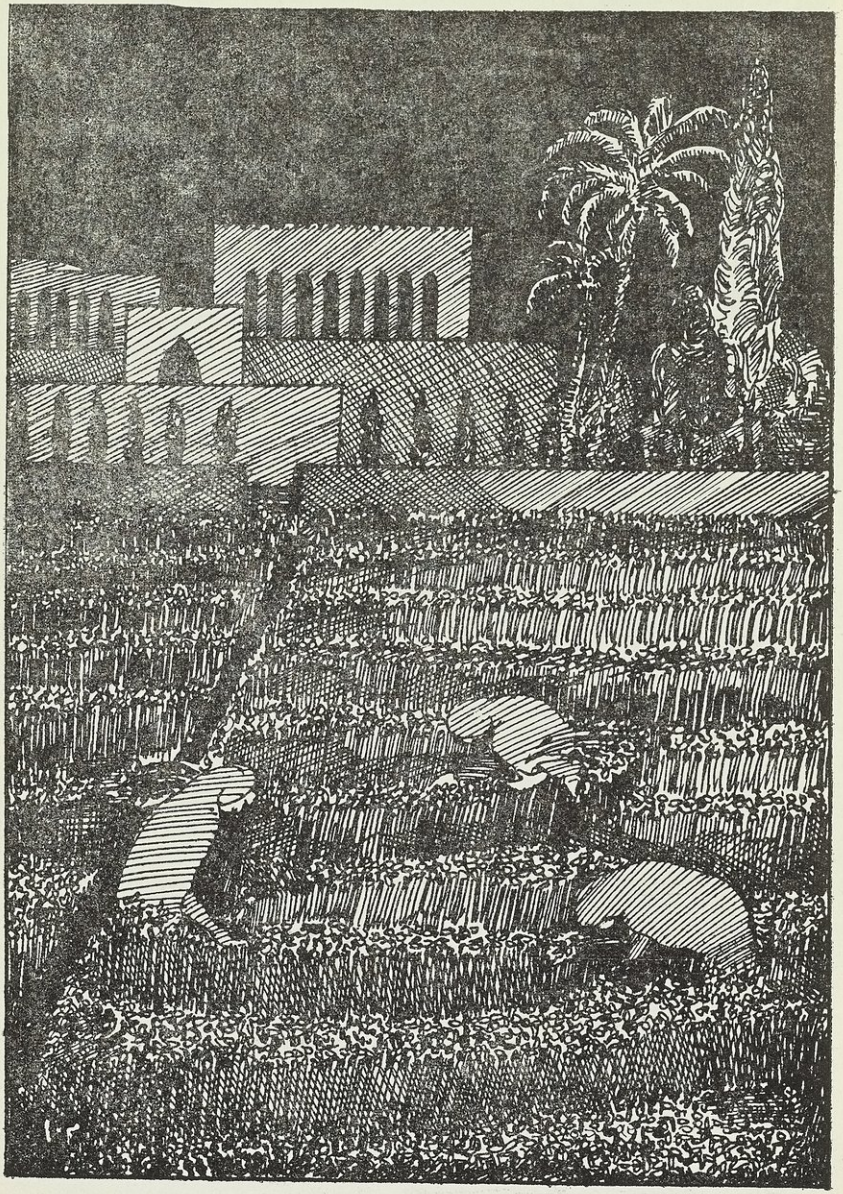

لعبا الشطرنج فخسر الأمير اللاجىء

نادى الأمير نافع عبده وقال له اذهب إلى المسجد والناس فى الصلاة وأذن فى الناس أن العشاء غدا فى بيت الأمير سعد ضيف هذا البلد . وأحذر أن يتأخر أحد . وأشار إلى عبده إشارة خفية فدنا منه وأسر فى أذنه بكلمتين همسا ومضى العبد لشأنه وأذن فى الناس وقت الصلاة بما أشار به الأمير .

اختلطت الأفكار برأس الأمير سعد . وتجاه هذا الأمر الواقع الحرج لم يكن له بد من إنقاذ الموقف بأيسر الطرق بفكرة استقرت فى نفسه وارتاحت إليها وهى أن يهرب بأهله عند صلاة المغرب والناس فى المسجد يصلون .

ولعل الأمير نافع عرف ما كان يدور بخلد ضيفه ولعل ماهمس به فى أذن عبـــده كان الحيطة التى اتخذها الأمير والاطمئنان الذى يدخله على قلب ضيفه عند مايعود إلى البيت .

نهض الأمير نافع من مجلسه فى البستان متأخرا وودع ضيفه ومضى هذا إلى بيته . وفى الطريق اخذ يحث الخطى فكأنه يريد أن يسرع إلى بيته ليعلم أهله بالكارثة الجديدة ومادبره للخلاص من فضيحة قد يهون ضياع الإمارة حيالها .

بلغ البيت مرتبكا منزعجاً فوجد حركة غير عادية . فوجد العبيد والخدم يحملون على رؤوسهم وبين أيديهم صحافاً وأوانى

ويهيئون لوليمة جامعة .

فذهب روعه واستنتج أن مضيفه لم يود به شرا ولا فضيحة ووجد أن الأمير نافح قد هيأ كل مايتصل بهذه الوليمة .

وفى المساء اجتمع أهل البلد للعشاء جميعاً فأكلوا وتندروا وكان الأمير نافح يداعب الأمير سعدا على العشاء ويمازحه وقبل أن ينتهوا من العشاء نادى الأمير نافح بصوته الجهورى وبكل مافيه من وقار وهيبة وثبات وقال : « من تعش يبق ولايخرج » . فلما أن انتهوا من العشاء اجتمعوا وبقوا منتظرين أمر أميرهم فبدأ هذا الحديث فى قومه قائلا : إن هذا سعد جاءكم لاجئاً لكم واختاركم بين جميع أهالى البلاد التى حولكم وما اختاركم إلا وهو يؤمل فيكم الخير والطيب والكرم وهو يبغى منكم المساعدة ولا عذر لمتقاعس . كل يعطى على قدر حاله . وما أن انتهى من خطابه الذى هو خير كلام (قل ودل) حتى كان كاتب واقفا بالباب يعرف من كل خارج المساعدة التى يتبرع بها .

وأخذ الأمير الورقة ودفع بها إلى عبده وقال له اجمع من كل منهم مايتبرع به وتبرع هو بمئتين من الذهب عددها أربعمائة .

وجمعت التبرعات وأعطاها إلى الأمير سعد وقال له :

هذه الأموال لاتكون عندك سدى . جند أناسا بالأجرة من أهل هذا البلد لتستعيد بهم أمارتك فلعل الله ينصرك فأنت مظلوم لاعاد ولا باغ .

وجند سعد مائة ومشى وفى طريقه سأل سعد جنده : ياجماعة نحن مقبلون على أمر جلل سنهاجم بلادا ولا نعرف من يسلم أو لا يسلم فمن أحب أن يرجع فليرجع . فكان يرجع فى كل يوم نفر منهم حتى إذا ما أقبلوا على البلاد كانوا عشرة فقط .

تقدموا متسللين فى جنح الليل ومعهم سلم من الخشب نصبوه على بيت أولاد عمـــه الذين أخرجوه من أمارته وتسلقوا الجدران جميعا ولما صاروا فوق السطح قال لهم سعد : نحن مقبلون على أمر جلل خطير وأخشى إذا سمع أحدكم رصاصة طائشة أصابه الجزع أو الرعب واتجه إلى السلم هاربا فهذا السلم انظروه جميعا .

ودفعه بيده من الجدار ثم قال : إما أن نقتل الرجال أو يقتلونا وماقصد من وراء ذلك إلا استماتة رجاله . وكذلك فعل طارق قبله وكذلك جميع الأبطال الأحرار فى عصور التاريخ إما المجد المخلد والعز السؤدد وإما الموت الزؤام ولا يمشى وسط بينهما . وهكذا كان العرب .

نزل هذا الرهط يستميت وقتل أولاد عم سعد الثلاثة وأذن سعد أنه لم يعد فى بلاده سوى سعد فمن أراد السلامة والعافية فليبق وأنشد سعد شعرا يمدح فيه الأمير نافحا الذى ساعده على استرداد إمارته .

ومنذ ذلك الحين لم يعد النسوة اللاجئات يأكلن البرسيم ويجترون الألم والحسرات واللوعة والدموع .

أيكون الكلب أبرمنى ؟

حدثنى أحد أبناء « الرس » الكرام قال :

كان هذا (المهادى مهمل) . . أحد شيوخ قبيلة (عنيزة) عائدا إلى أهله بعد أداء فريضة الحج . . وما أن وصل (ركبة) قرب عشيرة حتى اعتراه مرض . . فنزل ضيفا على الشيبانى من (عتيبة) . . واشتد عليه المرض . . فإذا هو الجدرى الخبيث . . فبذل الشيبانى وامرأته جهدهما فى العناية بضيفهما . . فهى تعالجه بالادوية العربية المعروفة لدى البادية ضد هذا المرض والرجل يسعى ويجوب الأرض بحثا عن الرزق والطعام لأهله

ولضيوفه الذين مرض كبيرهم عنده . .

ولما أبل الشيخ من مرضه كان الشيبانى قد هيأ ذلولا من عنده وحملها بكل ماتستطيع أن تحمل من زاد وماء . . ووهبها للشيخ العنيزى المهادى . . وقال له : هذه عطيتى لك . . يسر الله أمرك . . وحمدا لله وشكرا على سلامتك . .

فقال المهادى : شكرى لك لا يقدر . . إن عازتك الدنيا (أى قلبت لك ظهر المجن) . . فأنا فى ذلك المكان .

. . .

مضت السنون . . وشح المطر . . وتفشى المحل . . فدهمت الدنيا سنون عجاف . . وساء حال الشيبانى فى جملة النـاس . . فساير الزمان وداوره . . ولـكن الفقر والعوز ألحا عليه . . والمرء حين يدبر له الزمن وحين تصل المسغبة إلى الأهـــل والولد . . يفتش ماستطاع عن مخرج . . يفتش عن صنيع أو معروف أو جميل سابق . .

فشد هو وأهله جميعا رحالهم وارتحلوا بعيدا . . يقصدون (المهادى) . . وأخذوا يسألون كل قبيلة تصادفهم علهم يهتدون إلى مكانه فالقبائل تتنقل من جهة إلى أخرى . . وتتبع الكلأ والماء والخصب والهواء الطيب ! . . وأخيرا اهتدوا إلى مضاربه . .

وضع أهله وأولاده فى طرف مضارب القبيلة . . وتقدم

وحيدا صوب بيت المهادى . . فسلم وجلس كما يجلس القريب والبعيد . والضيف وعابر السبيل . . وصاحب الحاجة . .

وبعد أن أخذ الغريب مكانه . . وأخذ من الراحة قسطا وشرب القهوة تبين على مايظهر أن المهادى لم يعرفه . . فالسنون العجاف القاسية غيرت معالم المرء وسحنته حقيقة ! . .

فسأله المهادى : من أين أنت ؟ . . فأخبره أنه صديقه (الشيبانى) الذى عالجه عند مرضه . . فقام إليه وسلم عليه سلام القريب والصديق . ، بل المنقذ . . وطيب خاطره . . وسأله عن أهله . . فأخبره أنهم معه . . وأنهم بطرف الحى . .

* * *

صفق المهادى . . فجرى نحوه عبد من عبيده . . فهمس فى أذنه . . ومضى العبد . . ثم عاد بعد أقل من نصف ساعة ينبىء سيده بأن كل شىء أعد . . أن البيت معد للضيف . . فللمهادى أربع زوجات . . كل زوجة فى بيت خاص بها . . وعند كل بيت قطيع من الإبل وقطيع من الغنم . . فأمر أن تخرج زوجة عينها . . (برأسها) من البيت تاركة كل شىء به على ما هو عليه ليحل به الشيبانى وأهله وولده ! . .

كان لهذه الزوجة صاحبة البيت ولد ولوع بالقنص . .

لا يعود إلى البيت إلا فى جنح الليل . . فإذا عاد وجد أمه فى البيت راقدة فرقد قريبا منها . .

وعند ماغادرت الزوجة البيت قالت لامرأة الشيبانى : إذا أتى ولدى فى الليل قولى له : أمك فى ذلك البيت . . ومضت . . وحل الشيبانى وأهله وولده فى البيت . . وذهب الشيبانى فى المساء ليسمر عند المهادى . . ويشكر له كرمه . .

ولما استقر الأمر لزوجة الشيبانى بالبستان . . وكانت متعبة منهكة القوى بعد سفر طويل مضن وجوع يغرى البطن وقلق يستبد بالنفس . . فأغمضت عينيها وأسلمت نفسها إلى نوم عميق ونسيت وحية امرأة المهادى . .

وعاد ابن المهادى فى جنح الدجى تعباً منهكاً من وعثاء القنص . . وخلع ثيابه بسرعة واندس إلى جانب من يحسبها أمه . .

عاد الشيبانى بعد أن انتهى من سمره مع المهادى . . ودخل البيت . . ودلف ليرقد بجانب زوجته فإذا غيره يرقد بدلا منه . فلم يكن منه إلا أن استل خنجره وذبح هذا الراقد ظناً منه أنه مغتصب أو غادر أو منتهك للحرمات . . دون أن يبحث من هو . فقد علبته الغيرة والنخوة العربية وسبق السيف العذل . .

استيقظت امرأة الشيبانى مذعورة . . وضربت كفا بكف

حين رأت الرأس مفصولا عن الجسم والدماء الفائرة تسيل .. وقالت لزوجها : حسبك الله .. هذا ولد المهادى .. لقد أوصتنى عليه أمه لأنه اعتاد حين يؤوب من القنص أن يرقد بجانب أمه ولقد حسبنى أمه .. وفعل .. وغلبنى النوم .. ونسيت الوصية بعد التعب الشديد .. فكان ثمن ذلك رأس ابن من أكرمنا وآوانا وبر بنا ..

. . .

عاد الشيبانى إلى المهادى فى الليل وأخبره بما حدث . فقال له المهادى : ماأحد درى شيئاً عن ذلك ؟ .. فأجابه : أبداً .. ماأحد . فذهب المهادى والشيبانى .. وحملا الولد المغدور .. ورميا به فى ملعب أولاد القبيلة ..

أصبح الصباح .. فادعى المهادى أن من قتل ابنه هو من القبيلة .. وطلب من القبيلة أن تسوق له دية الولد .. فساقت إليه ديته من الإبل والغنم .. فأعطاها جميعها إلى الشيبانى

* * *

بقى الشيبانى عند المهادى نحو ثمانى سنين وكانت عند المهادى ابنة مليحة .. كفلق الصبح .. جميلة ككرم أبيها .. راعية للجميل حافظة للود مجبرة للعثرات .. وكان للشيبانى ولد يكبر

هذه الفتاة . . تهفو إليها نفسه يكاد قلبه يحلق فى الأجواء معها فأخذ يتودد إليها . . يغازلها . . يرقب عودتها ليمتع ناظريه بها أو ليحدثها بكلمة عابرة يجتذب بها قلبها . . فلا تجيبه الفتاة إلا بأنفة العربية الأبية . . ولا ترد على غزله إلا بإعراض تام وصمت ولما استغرق فى غزله . . وأوغل فى معاكسته أفضت إلى أبيها بالأمر فكذبها الأب وقال : « تالله إنك كاذبة » .

ازداد الفتى بغياً وإرهاقاً للفتاة . وكانت فى كل مرة تتمنع عليه وتتحاشاه . . فأطمعه ذلك أن يتمادى فى غيه . . حتى أراد مرة أن يهاجمها . . مستعينا بالقوة فى نيل مبتغاه . . فأخبرت بذلك أباها . . بعد أن طفح الكيل وأصبح الأمر جدا عنيفا . . فكان جواب أبيها لها كذلك : « تالله . . إنك كاذبة » . . فازداد قلق الفتاة . واستنكرت إهمال أبيها أمر مصيرها . .

. . .

فى نفس تلك الليلة . أخذ المهادى يلعب مع الشيبانى لعبة (الضامة) ، فكان المهادى كلما نقل حجرا ، يقول وكأنه يخاطب الحجر دون أن يلقى اهتماما بالشيبانى : ارحلوا ، وإلا رحلنا ، ارحلوا وإلا رحلنا .

سمعت امرأة الشيبانى ما كان يقول المهادى لأول مرة . .

ولم يكن يردد مثل هـذا القول إلا هذه الليلة . . فحين انتهى اللعب . . قالت لزوجها بعد انصراف المهادى : يقول لك الرجل ارحلوا وإلا رحلنا . . أخشى أنه يقصدنا بذلك . . ربما كان هنالك أمر . . استئذنه غدا فى الرحيل . . فإن وافق . . كان حقيقة يعنى مايقول . . وإلا فسنعرف اتجاهه وإن لم يوافق بقينا حيث نحن . .

وفى صباح ذلك اليوم . . عمل صاحبنا بما أشارت عليه زوجته . . فوافق المهادى . . فرحل الشيبانى بما عنده من حلال من غنم وإبل . . وبكل ماوهبه إياه المهادى . . وماعمل خلال هذه المدة على تكثيره وتنميته بالتجارة . .

* * *

وبعد مسيرة ساعتين . . وقف الشيبانى وأهله وأولاده . . وأمر بإعداد القهوة . . وأخذ يحدث أولاده قائلا

تبا لكم مافيكم خير . . عند المهادى بنت (مزيونة) . . كيف أخليتم سبيلها . . ماقدر واحد منكم عليها ؟ . . فاعترف له الصغير . . ولده . . قائلا لو بقينا يوما واحدا لبلغت مرادى منها ولو بالقوة . .

استل الأب سيفه وذبح ابنه هـذا حالا . . ووضع رأسه

(فى جراب)، وأعطاه لأحد أولاده وقال له علق هذا الجراب قرب البيت .. ليقتنع المهادى بتحفظى لجيرته .. وجميله .. ووده .. ففعل ابنه بما أوصاه به أبوه .. وعاد فلحق به .. وواصلا السير حتى (ركبه) ..

* * *

وبعد سنتين من انقضاء هذا الحادث . أراد المهادى أن يغزو الشيبانى ويقتله ثأرا لولده الذى قتله فى حضن أمه .. ولو خطأ .. فلم يكن يستطيع أن يقتله وهو ضعيف نازل عنده وليست هذه المرة .. انتقاماً لشرف ابنته لأن الشيبانى ثأر له بنفسه .. وإلا لكان المهادى راغباً فى أن يمهل الشيبانى بعد أن يتخطىء حدود القبيلة فيغير عليه ويقتله هو وزوجه وأولاده انتقاماً لشرف البنت .. ولكن الشيبانى كفاه هذا الأمر بأن قتل ابنه بنفسه ..

وحين أقبل المهادى على مطيته تركها بمكان بعيد .. وذهب بنفسه إلى بيت الشيبانى ليقتله بيده . وكان عند الشيبانى كلب ضخم شديد البأس ولا يستطيع أحد أن يقرب البيت مادام الكلب حارسه وأمينه ، فلما أقبل على البيت وثب الكلب عليه .. وعوى .. ولكن مالبث أن عرف أنه المهادى الذى كان

ضيفهم حين كان مريضاً والذى كان مع صاحبه حين رحل إليه . . وبقى هناك سنين . . وها هو الكلب يعرف ولا ينسى هذه الصداقة حتى بعد مرور سنتين من الزمان . . فمالبث الكلب أن خضع للمهادى . . وسكت عن النباح وبصبص بذنبه . . ووضع رأسه بين رجليه . . ومشى بذل واحترام وخضوع . . يتعثر بين رجلى المهادى . .

أثر هـــذا المنظر وماأبداه الكلب من ود فى المهادى . . وواصل سيره حتى البيت . . ونادى على الشيبانى (صاحبه) . . وأخبره بنيته التى قدم من أجلها . . وقال :

والله لن يكون الكلب أحسن منى شيمة . . جئت لأقتلك . . ولكنى عفوت الآن عنك . .

ولما عاد . . إلى أهله . . لم يستطع كبح جماح نفسه عند ماتذكر ابنه وكيف قتله الشيبانى مع علمه ويقينه أنه خطأ . . غير مقصود . . فذلك ليس من الشهامة فى شىء .

أخذ ينفذ الفكرة التى ربما كانت تحوم فى رأسه بعد أن رأى رأس ابن الشيبانى موضوعا فى جراب ومعلقاً فى عمود

خيمته .. كانت تطرق رأسه فكرة تجهيز ابنته وإرسالها إلى الشيبانى ليزوجها أحد أولاده ..

والآن ..

وقد صفى بينهما الحساب .. وصفت القلوب .. جهز ابنته فعلا وأرسلها بكل ماخف حمله وغلا ثمنه .. وأرسلها هدية مفاجئة إلى الشيبانى الذى اختار أصلح أولاده لها بعلا ..

عرس قلب

صبراً ياوحيدتى . . سيعود اليك زوجك بعد
حين ذليلا . . يطلب منك المغفرة والتوبة فلن
ينفعك إلا صبرك وكبرياؤك

كثيراً ما يكون المرء راضياً مطمئناً . . يكد ويكدح فى سبيل الحصول على العيش الهانىء . . الكريم إذا بالقدر يفجأه ويدهمه . . إما فى الصحة أو فى القلب أو فى المال . . أو فى الممتلكات . . أو فى الولد . . فيغدو موزع اللب والخاطر . . مشرد الإحساس والشعور . . واهى العزيمة والهمة . . فمن الناس من يضمد لهذه الأحداث . . ويداور الأيام . . ويصبر ويصابر . . ويرابط . . ويشتد حينا . . ويلين أحياناً . . إلى أن

يخرج من هذه الأزمات جميعها منصوراً مظفراً . . موفور الكرامة والعزة . . رافع الرأس عالى الجبين . . ومنهم . . من تهزه هذه الأحداث وتفقده الصبر والأعصاب . . فيدب الوهن إلى قواه . . ونخور عزيمته . . وينوء تحت عبء الأحداث . . صغيرها وكبيرها . . فتصرعه وتتركه حطاماً أطلالا وإذا جاز لنا أن نقول أن الحظ فى كثير من مثل هذه الحالات يلعب دوراً كبيراً فى تقرير مصير هؤلاء الرجال الذين تدهمهم الأحداث فإننى لا أكون مبالغاً ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن العقل وحسن التصرف وتجارب الأيام . . وقوة الأعصاب .. كل هذه تلعب دوراً يفوق دور الحظ كثيراً .

وهذه قصص صغيرة لنقل أنها واقعية . . بل لنقل أننى خططت بها بعض الخطوط وأضفت اليها بعض الإضافات وحذفت بعض ما ينبغى أن يحذف . . لنبعد الأشخاص سواء أكانوا أحياء أعزاء .. أم مشردين متربصين . . أو ممن ودعوا هذا العالم إلى عالم آخر .. لنبعدهم جميعاً عن حيز المرئى والمحسوس والملموس .. ولنضفى عليهم مسحة من الفن ..

وسواء اعتبرنا هذه القصص وقائع جرت على مسرح الحياة أو اعتبرناها من الأساطير الخيالية فسنخلص منها إلى عبرة خليقة بالتفكر والتأمل وسأختار منها ما كانت العاطفة تقوم

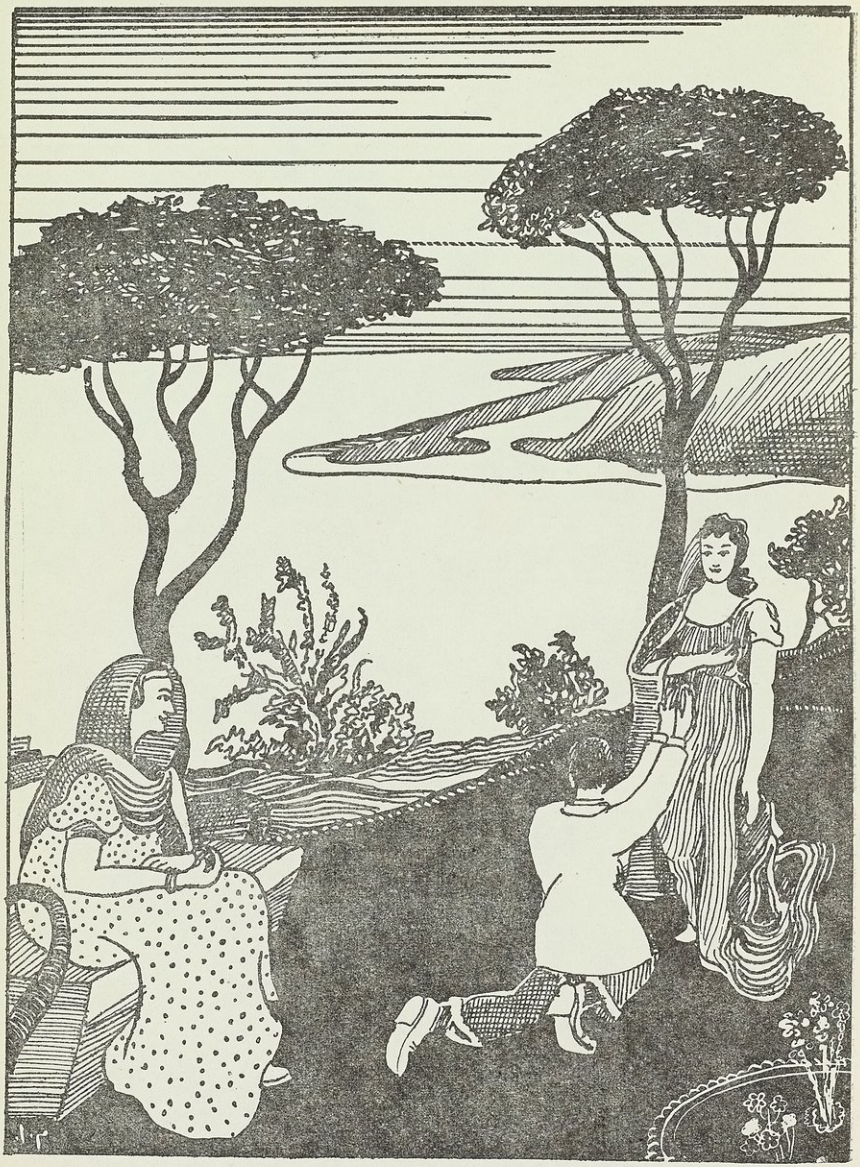

به فيها من دور خطير . . فما دام فى الدنيا أحياء فسيكون للعاطفة دائماً الدور الأول فى تمثيل فصول رواية الحياة

فهذا شاب أنهى علمه العالى وانخرط فى سلك موظفى الحكومة . . وأراد أن يعيش شريفاً . وأن يكسب عيشه من الحلال ومثل هذا الموظف يتعب كثيراً حتى يدخر بضع مئات أو آلاف .. مرت الأيام به رتيبة طيعة .. ليس فى نفسه أثر من حسد أو شر ولؤم ، فيه طموح يكيفه حسب الواقع .. يطرد الأفكار التى تدنيه من الخيال متبنياً الأفكار التى تحقق له شيئاً من الأمل . إنه معقول متزن فى معظم تصرفاته .

وفى ركن آخر من أركان بلده . تعيش بنت عمته . وحيدة أبويها . تعبت عمته فى تربيتها كثيراً وأنفقت على تهذيبها وتثقيفها المال الكثير حتى غدت أروع مثل للفتاة الناضجة الوقور التى تحفظ دينها ودنياها

ولم يكن فتانا يفكر فى ابنة عمته قط لأنه عرفها صغيرة . . وراقب نموها ، ليس للعاطفة مجال بين قلبيهما ، ولكن اتفقت العائلة على اختيارها له ، باستثناء الأب ، أبى الفتاة ، لم يكن قانعا بهذا الاختيار ، لأنه أراد أن يكون ماترثه هذه الفتاة محفوظاً فى العائلة ، ولذلك اختار لها ابن أخيه .

واشتدت المنافسة بين عائلة الفتاة وعائلة الفتى ، واحتدم

أوار الشر بينهما ، والفتاة تميل لابن خالها دون ابن عمها لأنه أمن مستقبله واعتمـــد على نفسه فى بناء شخصيته ، ولكن التقاليد والعرف والعادات تمنعها من إبداء رأيها ، بل تضطرها للإذعان لما يتفق عليه المسنون .. وكبار رجال العائلة ... وهؤلاء جميعاً ينسون أيام صباهم وشبابهم .. وما كانت عليه عاطفتهم فى تلك السن المبكرة من ربيع حياتهم .. ولا يبالون فى مثل هذه الأمور إلا بالمصلحة .. وغالبا ما تكون المصلحة مادية وكل نداء للقلب وتجاوب للإحساس والشعور والعاطفة فى هذه السن المتقدمة هو فى عرفهم أمر تافه لايحفلون به .

فأم الفتاة تريد أن تنقذ وحيدتها من جحيم عائلة قاسية فظة قاست هى وابنتها فى ظلها الأمرين . والأب لاينظر إلا بمنظار حفظ الثروة فى العائلة . . وابن الخال لاينظر إلى المال والمادة لأنه هو بنفسه عامل على تكوينهما وتنميتهما . . فهو فى غنى عن كل ثروة ومال . ولم يكن رضاؤه تلبية لنداء عاطفى بقدر ما كان ارضاء لنزوات المروءة والنجدة وانقاذا لفتاة عاشت وأمها عيشاً غير كريم فى بيت خيم عليه سوء التربية والنكد والكمد بسبب أهل الأب . .

ولما كان فتانا ابن الخال يعيش فى بلدة أخرى حيث يعد له مركزا مادياً وأدبياً طيباً . . فقد صار بعيداً عن رحى المعركة

التى كانت تدور بين العائلتين . . ولم يكن إلا مرابطا ينتظر الفرج من أى سبيل . . ينتظر نتيجة المعركة بكل ثبات . . ومع هذا فقد اقترح على عمته انتقالها وابنتها إلى بيته . . وإعلان الخطوبة والزواج . . ولكن العمة كذلك بالغت فى المحافظة على التقاليد وقواعد الأصول والشرف . . ولم ترض مثل هذا الزواج « الذرى » دون رغبة الأب وموافقته . . وحاولت بشتى الوسائل إقناع الأب دون جدوى . . وكذلك حاولت البنت . . وعرف الأب مدى ماتتمتع به زوجته من محافظة على التقاليد وقواعد الحق والمنطق والشرف . . فبالغ فى استغلال ذلك كله لمصلحته وحرص على ألا يفرط قط فى ابنته . .

. . .

وفى يوم . . من أيام الربيع . . والفتى متربص ينتظر الفرج فوجىء بمكيدة ودسيسة من العائلة الثانية كادت توقعه فى السجن وتقضى على مستقبله قضاء مبرماً . . فقد دبرت له فى الخفاء مؤامرة محبوكة حبكا خفياً . . كافية لو ثبتت لأن تدحره مادياً وأدبياً وتقضى على سمعته إلى الأبد . . وهذه الفجاءات التى لاتكون بحسبان المرء هى أخطر أنواع الشرور . . ولولا أن الله بالمرصاد يأخذ دائماً بيد البؤساء والعاثرين . . لمزق

بعض الناس بما طبع فى نفوس هذا البعض من شر ومكر . . كل حبل من حبال الود والعلاقة الطيبة والشرف بين سائر أهل هذه الدنيا . . ونجا فتانا من أعظم مكيدة شريرة آثمة . .

. . .

تغلب جانب عائلة الأب . . وتزوجت الفتاة مكرهة من ابن عمها . . وقد كان هذا الظفر كافياً لأن يجعل ابن العم هذا خير زوج لفتاة من أكثر الفتيات تهذيبا وعلما وطيب خلق ومحتد . .

. . .

ولكن الزمن دبر مؤامرة أوسع نطاقا وأشد تنكيلا من المؤامرة السابقة . . لامع ابن الخال المتنحى المغلوب على أمره . . ولكن مع هـــذه الفتاة الطيبة الكريمة . . حتى بعد زواجها . .

فإذا كان الدين والعرف والعادات ، لاتسمح بأن يكون للفتى علاقة آثمة قبل زواجه . . فكيف يكون الأمر إذا كان للفتى علاقة آثمة بعد زواجه . . لاريب فى أن ذلك أكثر نكرا وهو لا تهتز له جوانب الفضيلة وأركان المروءات . .

والذى حدث هو أنه كان عنـــد اصطراع العائلتين . .

وتمسك كل منهما برأيها واستماتة الجانب الظافر من أجل فتانا هذا . . كان للشاب حتى قبل ظفره علاقة آثمة . . وبعد زواجه تمادى فيها واندلع شرر هذه العلاقة وتأجج نارها . . فكان يسافر مئات من الأميال كى يصل إلى حيث يدفن آثامه . . ويعود بعد غياب أسابيع إلى بيته . . إلى زوجته . . مهدودا مكدودا صريعا يطالبها بدفع ثمن آثامه . .

وهى فتاة كريمة نبيلة . . صبرت على كل مكروه . صبرت على أمر الحياة . . وهى لاتزال فى ثياب العرس . . وفى آمالها البكر . . وفى أحلامها العذراء الطاهرة . . تتأوه وتتوجع . . وتئن من ظلم الأيام . . ولاتجد مواسيا لها إلا أما أرضعتها من لبن الشرف والطهر والعفاف والكمال . . وتقول لها : صبرا ياوحيدتى . . سيعود لك زوجك بعد حين ذليلا . . يطلب منك المغفرة والتوبة . لن ينفعك إلا صبرك وكبرياؤك ، إن الله مع البائسين والبائسات ، العاثرين والعاثرات ، والمحرومين والمحرومات ، لهم الغلبة فى النهاية ، ولهم العزة والكرامة

. . .

ويضرب القدر ضربته الثالثة

هاهو ذا الزمن يفاجىء بما خبأ فيطأ بخيله ورجله بلادا

بأسرها . . ويعم البؤس . . والعويل . . والصراخ . . والويل والثبور . . وتتمزق البلاد إربا إربا . . فى كارثة عامة ولا يسأل فيها الوالد عن ولده . . ولا المرضعة عمن أرضعت . . ويعم البلاد ويل عام شامل يكتسح الأخضر واليابس . . ويفشو العرى والتشريد فى سائر أنحاء البلاد . . ويخرج الناس كما خلقوا . .

وفى زاويه نائية . وبعد أن استقر النوى بالعائلات . . وثاب كل إلى رشده . . كان فتى فى ركن هادىء جاثياً أمام عروسه . . وهى لاتزال فى بقايا أسمال بالية خلقة . . هى آثار جهاز العرس . . يسألها فى تضرع وتذلل وحرقة . . الصفح والغفران والنسيان . . ويحرق أنفاسه الآثمة فى صدرها الطاهر البريء . . فتبتسم ابتسامة هادئة . . ثم تضمه كأنه طفل مولع بالدمى مفتون بالتصوير والتزويق . . فتمسح عن جبينه الإثم والعار . .

لقد كان ذلك يوم عرس لقلبها .

إلى الخطيبة المجهولة

« لقد يئس الشباب . . أو كثير منهم على
الأقل من المتعلمات . . لماذا ؟ ! . . »

حبيبتى . . .

ولا أدرى الآن أترتسم على محياك الجميل ابتسامة هزء . . أم سخط . . أم فخر . . أم مكر ؟ . . ولكن الذى لا أرتاب فيه قط هو أنك سوف تتهين عجباً عند ماتعلمين أن هذا هو أسمى مراتب الحب . . الشريف . . المشوب بالتقدير . . لأنه جاء بغير سابق معرفة . . وهذا مايجعل له القيمة الفنية الخالصة الجديرة بالتأمل والتفكير . .

قلت : إذن أنت لا تفتش لى عن كفؤ ياصديق . . بل تفتش عن سيدة لى . . أمشى فى ركابها . . أو عن ملكة أكون لها — إذا تواضعت — وزيرا . . هذا ما لا طاقة لى به . .

استدرك صاحبى خطأه وأخذ يطرينى . . ويغرق فى إطرائى بما يعلم وأعلم أننى لست خليقا بعشر معشاره . . علّه يرفعنى إلى وابتسامته البريئة . . وأكثر ما يغيظنى منه أنه يضعنى فى مواضع لا أستحقها قط . . وأنا مقتنع أنه يريد لى الخير كله كما أريده له . . إلا أن من إحدى غواياته العبث وخلق الجو الصالح للنكتة . . ليطرد الهموم والأكدار عن نفوس الصحاب والخلان . . علم صديق أننى مولع بخلق أبطال دائما لقصصى وكتاباتى . . ألهو بهؤلاء الأبطال وأعابثهم . . فيكاد يخيل إلى أن صاحبى أراد أن يلهو بى كما ألهو بأبطالى . . أو أراد أن يوجه خيالى اتجاها حبيبا إلى نفسى . . فأسر يوما ما فى أذنى . . وقال :

— وجدت لك ياصاحبى كفؤاً . .

قلت : وكيف كان ذلك ؟ . .

قال : إنها . . كذا . . وكذا . . وكذا . . وأخذ يسبغ عليك صفات الملائكة . . ولست أغالى إذا قلت صفات الآلهات . . على أن من حقك أن تعلمى ماسبب هذه الجرأة التى تدفعنى

قلت : إذن نت لاتفتش لى عن كفؤ ياصـــديق . . بل تفتش عن سيدة لى . . أمشى فى ركابها . . أو عن ملكة أكون لها — تواضعت — وزيرا . . هذا مالا طاقة لى به . .

استدرك صاحبى خطأه وأخذ يطرينى . . ويغرق فى إطرائى بما يعلم وأعلم أننى لست خليقا بعشر معشاره . . عله يرفعنى إلى بعض الدرجات التى وصلت إليها . . ولكن دون جدوى . . فأنا مازلت فى الأرض . . وأنت رفعك فى ذهنى إلى السماء ! . . وشتان بين من يعيش فى عليين . . ومن يدب على الأرض دبيباً ! ! . .

. . .

كدنا نفترق على غير وفاق . .

ولكنه ذكى ماكر . . أقسم أن سعادتى لن تتم إلا بمارسم فى مخيلته لى . . وعجيب من هذا الصديق الذى يؤثرنى هذا الإيثار . . وأوشك أن يتركنى ويمضى . . فتمسكت بأهدابه . . وقلت :

ولكن ياعزيزى . . أعلمت من أمر شذوذى شيئاً ؟ ! . . أعلمت أننى حين أتفرغ للكتابة أركز أفكارى ساعات تلو ساعات فى قصة أو مقال أو خطبة . . أو أى شىء من هذه (السخافات) . . التى أصبحت جزءاً هاماً من تركيبى . . فأنسى كل ماحولى هذه الساعات الطوال ولا أطيق أن يزعجنى أحد بحركة أو كلمة أو إشارة أو ضجة ؟ ! . . إن هذا الجو البغيض

لا يطيقه إلا كل من كتب عليه الشقاء والصبر الجميل !! . . إن هذا الجو لا يفترض أن يتحمله سوى صاحبه . . إنه عذاب .. شبيه إلى حد كبير بالعذاب الذى يفرضه فقراء الهنود على أنفسهم . . ولكنه من نوع آخر ! . . وكم فى العذاب والألم من لذة ! ! . . فأية شريكة حياة يبلغ بها السخف حداً يجعلها تشاطر مثل هذا العذاب . . وما الذى يدعوها إلى أن تطيق وتتحمل هذا الإرهاق والضنى ؟ ! . .

قال صديقى وهو يحاورنى : ولكن قد يكون عند مثل هذه الشريكة (المزعومة) مثل هذا الميل الذى تسميه شذوذاً وماهو بشذوذ ؟ ! . . وإنما هو فى الواقع أجل وأسمى هواية ؟ ! . . إن مثلك ياصاحبى مئات من الألوف ممن يستغرقون فى أفكارهم وكتاباتهم وأعمالهم الحسابية أو التجارية أو القانونية أو الأدبية أو أو . . . إلى مالانهاية . . يستغرقون الساعات والأيام وتكون شريكات حياتهم عوناً لهم فى مهماتهم فى الحيـــاة . . وأحرى أن تدرك هذا ، المرأة المهذبة المثقفة الرفيعة الخلق السامية الأهداف . .

قلت : ليس هذا شرطاً أساسياً لعقد صك الشركة المقدسة . فعندى آلاف من الشواهد والأدلة على أن الحياة السعيدة بين اثنين لم تكن فى يوم من الأيام قائمة على مجرد التوافق العقلى

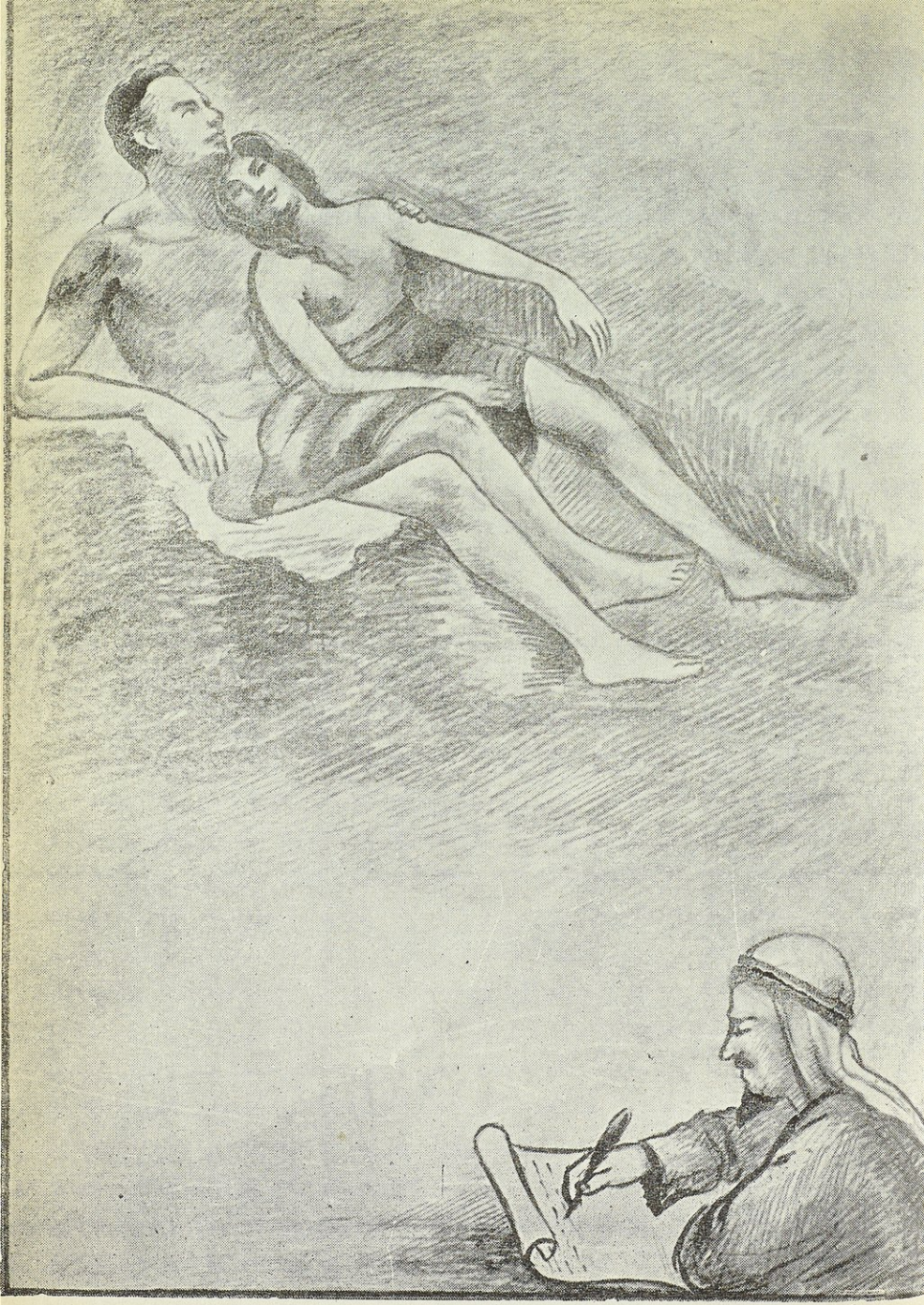

فالإرادة هى الطاغية فى كل زمن . . والإرادة مصدرها القلب الهوى . . العاطفـــة . . سمها ماشئت ! . . ولنفرض أنى وافقتك ياصديقى على ماتدعونى إليه . . فمن ذا يضمن أن تنزل هذه الملائكية من عليائها إلى مستوانا الأرضى ؟ ! . . وهب ذلك جدلا . . من يضمن ياعزيزى هذه النبضات . . هـذه الخفقات التى تخفق لهـا القلوب . . ولاتعيش إلا بها ولها . . ومنها وإليها . . وفيها . . من يضمن هذه الرعشات الـكهربائية التى تسرى فى العروق عنـد مايلتقى قلبان . . عند ماتتجاذب نظرتان . . ليكون من وراء ذلك اتحاد روحى وعاطفى . . وكل اتحاد تفرضه الطبيعة على المحبين ! ! . .

قال (مستهجناً) : أمازلت يافعاً ياصديقى ! ! . . ما الذى تقول وقد بلغت الخامسة والثلاثين . . أماتبغى الاستقرار ؟ . .

قلت : لا أنشد الآن غير الاستقرار ياعزيزى . . . والاستقرار الثـابت الأركان القوى الدعائم لايكون إلا على هذا الأساس . . إذا أحبتك المرأة تغاضت عن جميع مساوئك وأى الناس تصفو مشاربه ؟ . . إذا احبتك تجاوزت عن كثير من أخطائك . . وساهمت معك فيما يصيبك من مجد أو ينالك من نكبات وأرزاء ؟ ! . . شاطرتك أحزانك وهمومك . . وأفراحك ومسراتك ؟ . . تعال معى فأريك . . هذا صديقنا

أتى بفتاته من السويد من بلاد تصل إلى ٢٠ تحت الصفر وأكثر وهاهى ذى تعيش معه فى غرفة كالقبر وفى بلاد تصل حتى ٤٥ فوق الصفر وأكثر . . وهاهى منذ قدمت حلت كل متاعبه . . ومشاكله . . وأخذت بيده . . إلى خير طريق . . وهاهو الآن وقد صار بعد أشهر معدودات غير ما كان بالأمس . .

وهاهو صديقنا . . أتى بزوجة من فى باريس . . أو من ريف فرنسا بالأحرى . . وسكنت معه الخيام فى الصحراء . . وهربت معه من بلاد إلى أخرى متخفيين عدة مرات عند ما كان يساهم مساهمة مقدورة فى الحركة الوطنية الكبرى . وسكنت وثلاثة أطفال معه غرفة واحدة حيث لا ماء ولا كهرباء . . وقاست الأمرين . . وبعد مرور حوالى عشر سنوات فى عذاب مقيم . . ها هى الآن تعتبر من أولى سيداتنا فى مجتمعات هذا العالم المحدود المعروف . .

ولست أضرب لك الأمثال . . بالسيدات الغربيات إلا لقصد هام . . هو أن سيداتنا عند مايتثقفن الثقافة العالية . . يعتبرن أنفسهن من طينة أخرى . . فأستطيع أن أضرب لك أمثلة ألف أو مئات من الألوف من النساء العربيات اللواتى يعشن فى بؤس وضنى وكد وكدح ودموع طوال حياتهن . . صابرات محتملات . . شاكيات بلواهن إلى الله . . العلى الأعلى . .

عفوك ياسيدتى التى فى خيالى وخيال صديقى . . أو لعلك تعيشين فى عالم الحقيقة حقا . . لست أدرى . . فقد تكونين من خيرة من أنجبت حواء . . وقد تكونين مثلا أعلى للمرأة الكاملة . . وقد . . وقد . . ولكن هذا لايمنعنا من أن نلم بالموضوع من أطرافه . . فإذا لم يعجبك فاعتبريه موضوعاً انشائياً . . قصة خيالية . . للتسلية . . وقتل الوقت . . وقد لايكون لك من الوقت ماتقلينه بمثل هذه الترهات . . ولكن وعينيك . . ستجدين فيه مادة دسمة . . ستجدين فيه عظة وعبرة لحواء هذا العصر . .

لقد عرفت بالصراحة القاصمة . . فلا لف عندى ولا دوران فى غضون حياتى . . وقد جنت على صراحتى كثيراً . . ولكنها أكسبتنى نتيجة كل صراع : علو الجبين . . وشموخ الأنف . . وأننى الآن أشد صراحة منى بالأمس . . لأنى بحمد الله لست بحاجة إلى أحد فى هذة الدنيا . . لست بحاجة إلا إلى الله سبحانه فعليه أتوكل . . ومنه أستمد القوة والعون . . وإليه أنيب . . ولذلك أنا أضمن أنك لن تسخطى من صراحتى . . أقول :

لقد يئس الشباب . . أو كثير منهم على الأقل من المتعلمات . . أو من كثير منهن على الأقل . . وقد لايكون الفشل فى كثير من الزيجات راجعاً إلى العلم أو عدمه . . فهنالك عوامل كثيرة تدخل

فى حصر الفشل . . كالتربية البيتية والبيئة . . والعادات والوراثة والمزاج . . و . . ولكن مما لاشك فيه أن العلم يجب أن يميز الفتاة ويجعلها فى مستوى خاص . . ويمد إدراكها بالعون على تغطية الكثير من النقائص والعيوب . . ومتى عرفت لمرأة خصائصها المميزة . . متى عرفت أنها امرأة قبل كل شىء . . أنها المعبودة . . لما وهبها الله . . من ابتسامة . . ورشاقة . . وفتنة . . وهذا الشىء الغامض الذى يسمى الحب . . والذى يخلقه الحنان والعطف والمشاركة الوجدانية . . وهذا كله لا يكون . . لن يكون لامرأة . . إلا إذا اندمجت برجل ، إلا إذا وهبت كل هذه ، لرجل ، وبادلها الرجل ذلك ، عندها فقط ، تزهو المرأة ، وتختال ، ويبين كل مافيها جميلا ؛ ويكون كل ما تفعل جميلا ، وجميلا جداً ، أما إذا كانت المرأة غاية فى الإبداع ، وغاية فى العبقرية ، ومنتهى بروز الشخصية ، فى أى مجتمع من المجتمعات أو أى عمل من الأعمال ، بعيدة عن ظل الرجل ، فإن عملها يكون آلياً . . ميكانيكياً . . رتيباً يريد أن ينقضى . . بعد أجل . . ثم يتلاشى ويندثر . .

وكيف تكون هذه الرشاقة والأناقة والفتنة بارزة أوضح

بروز .. فيما تنتجه المرأة .. أو فيما ينتجه كلاهما من أعقاب ؟

إن كلمة الأعقاب هذه لهى خير كلمة فى ناموس الدنيا .. إنها الخلود الباقى الأزلى ، وهذا هو مايتوق إليه كل رشيد راجح !! ..

قال صديق : ولكن مالك خرجت عن الموضوع

قلت : بل أنا وراء فكرة . لكى أصل إليها يجب أن أطرق كثيراً من المواضيع

لكم أود أن تنشأ هذه الأعقاب بين زوجين متعلمين نشأة تفكير وإمعان ، وأناة ، وتوسيع آفاق الفكر بشكل ينمى جميع الحواس ويهيئها لاستيعاب أكثر مايمكن استيعابه من ألوان الحياة وفنونها المختلفة .. لا أن تنشأ فى جو مشبع بالجدل العقيم والتشبث بالرأى .. وإظهار كل مدى بروزه على الآخر .. أو نفوذه أو شخصيته .. جو مشبع بالتعنت والتفاخر والتفاضل .. وقتل الوقت بالهذر .. وبما لايعود بأية فائدة على هذه الأعقاب .. جو مشبع بالبوكر .. والسهر المضنى مثلا .. وترك هذه الأعقاب للخادم والمربى والطباخ .. آه .. هذه الأعقاب .. كم ينبغى لها من تكريس وقت وتركيز .. ودراسة فى فنون التربية وتطبيقها عملياً .. لتعيش هذه الأعقاب

العيش اللائق المحترم . . فالتزامات المرأة المتعلمة جداً أكثر من أن تحصى . . ولذلك كان اهتمامها بالأعقاب اهتماماً ثانوياً . والمرأة المتعلمة طموح . . تواقة إلى أن تعرف كل صغيرة وكبيرة فى أمور زوجها . . ولذلك تفسد عليه عمله وحياته .

أتذكر ياصاحبى (فلاناً) الذى فرح بأمسه يوم تزوج، فماذا كانت النتيجة ، كانت السنة الأولى سنة خصام بلغ أوج السماء لأنها تريد كمتعلمة أن تفرض شخصيتها عليه ، وأن تكون لها الكلمة النافذة والرأى المطاع ؛ وهو بغير أدنى ريب ، يفضلها مائة مرة على الأقل ، وكم من مرة استدعى فيها القاضى لفض خلاف شجر بينهما أو خصام استحكمت حلقاته فى بيتهما

لاجدال فى أن امرأة لايملأ الرجل عينها إلا إذا كان ذا رجولة طاغية ، وإلا إذا كان فارساً بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان ، وفارساً فى كل موقف ، فكيف يحلو لها ، وكيف تسول لها نفسها العابثة أن تجرده من هذة الرجولة وهذه الفروسية إذا خلت إليه أدخلت إلى شياطينها ، ألا تخشى إذا تنازل وهانت نفسه عليه لأجلها هذه المرة ، أن تهون نفسه عليه أمام غيرها ، فتسقط أسهمه لا فى عينيها هى وحدها بل فى أعين الناس جميعاً ، ويصبح إذ ذاك كمية مهملة ، تافهاً . لاقيمة له ، فالمرأة إذن هى التى تهدم الرجل حتى ولو كان زوجها ، فى

كل زمان ومكان ، وهى هى ، التى ترفعه وتحلق به إلى أعلى ، وقد قيل صدقاً وحقاً أنها إما نعمة أو نقمة، أو كلتاهما معا ..

كان لى صديق ، يتيه على جميع أقرانه . ذكاء وشخصية ، وعلماً ، كان طبيبا ، وحين جد به العمر ، حين أصبح فى حدود الأربعين رغب فى الزواج ، رغب فى الحسب والنسب والجاه والمال والعلم ، فلصق بهذه جميعا وكم كانت تحزننى حاله بعد ذاك؟ انقلب صاحبنا إلى ذليل صاغر . فاقد الشخصية والنفوذ .. يؤمر .. فيفعل . أصبح مكسورا مغلوبا على أمره .. فاشلا .. فى جميع تصرفاته وحركاته وسكناته .. وانتقلت شخصيته السابقة إليها .. فأصبحا وياويلهما فى أتعس حالة ؟ ..

قال صاحبى : إذن أنت بالغ التشاؤم فى هذا الذى يسمى زواجا أو علما ..

قلت : معاذ الله .. أن تسمح نباهتك وتقديرك بأن تظن هذا الظن .. فإذا كنت أضرب الأمثال .. فهى واقعية . مآس مثلت على مسرح الحياة .. واذا كنت أقدم على خطوة تقرير المصير وأنا عالم بكل هذه الاعتبارات والحوادث .. فمعنى هذا أننى أفترض أسوأ الفروض والاحتمالات .. فكيف وهذه الفروض والاحتمالات بدون مسوغ ولا داعى قط لافتراضها حين تكون الحقائق حلوة لا مرة .. سهلة لينة لا شاقة أو

عسيرة ! ! .. هذه هى السعادة الكاملة .. بل هذا هو النعيم .. فأنت ترى إذن أننى لا أغرق فى التفاؤل .. وكذلك لا أغرق فى التشاؤم وإنما أرانى بين هذين قائماً ! ! . . هكذا علمنى الزمن ياأخى . . علمنى أن لا أضحك لما يضحك له الناس . . ليس بسطاؤهم فحسب . . بل العلية منهم . . لأننى أراهم بعد ذلك يبكون . . وعلمنى أن لا أبكى لما يبكى منه الناس . . لأنهم عما قليل يضحكون . . علمنى الزمن أن لا أسير بموجب قاعدة معينة اتفق الناس عليها . . واتخذوها منهجا . . فكم لكل قاعدة من شواذ . . حتى أصبحت لاقاعدة . . علمنى الزمن أن كل حادث ينبغى أن يتصرف فيه المرء حسبما يوحى به إليه عقله وضميره . . لأن الإنسان عنيد بطبعه . . ولا يعتبر بعبر الغير . . ولا يتعلم إلا من (كيسه) . . وعلى حساب أخطائه . . علمنى الزمن أن الخطأ أحيانا صواب . . والصواب كثيرا مايكون خطأ . . ونظرات الخلق لأى حادث تختلف اختلافا كليا فى مابينها . . وكل يعلل أى حادث التعليل الذى يوافق أهواءه وميوله . . . فلاتحسبن ياأخى حسابا للرأى العام . . لأنه خيال مضل . . عند مانقتنع بفكرة . . وتعتقد فيها السداد والرشاد . . أقدم عليها . . ولكن فى الوقت المناسب . . وكن ناجحا فى النهاية . . فلأم المخطىء الهبل . . والناس من يلق خيراً قائلون له مايشتهى

وبقيـة البيت سبقت . . كن ناجحا ياحبيب . . والناس كلهم مصفقون . . هاتفون . . مقبلون عليك بابتسامات عراض . . فإذا أتاك الله من الحظ وصفاء النفس أن تكون ناجحاوتخدم الغير . . فقد أوتيت حظاً بعيداً ! ! . . آه . . ما أجمل الألم . . وماأعذب الأحداث ! ! . . كم هى صاقلة مهذبة . . مشذبة . . خلاقة . . مبدعة . .

هذا مايخص التفاؤل والتشاؤم ياحبيب . . وأما العلم . . فإننى أعيذك من الجهل . . والغباء . . إن هذه هى أعظم شرور الأمة ووبلاتها . . إن أعظم أرزاء الأمة ومصائبها مركزة فى الجهل . . فالجهل هو أسس البلاء . . ولـكن . . رويدك بالله ياأخى . . لقد تعلمنا من الغرب . . فماذا أخـذنا عنه ؟ . . لوددت والله أن نأخذ عنه كل شىء فإذا ساويناه بالعلم والقوة والعمل . . فالعفاء على جميع تقاليدنا وخصائصنا ومميزاتنا الذاتيـــة التى نفخر ونتشدق بها . . ولـكن . . ماذا نرى ! ؟ . . نريد تقليـد الغرب . . ولـكن بماذا ؟ ؟ . . . بالقشور القشور . . فلا نحن غربان . . ولانحن طواويس . . فإذا كان الأمر كذلك . . واستفحل الشر . . وأصبح البـلاء مستطيرا . . ياليتنا إذن نأخذ المختارات من الغرب فنأخذأحسن ما لديه . . ونبقى محتفظين بخصائصناوتقاليدنا وذاتيتنا المميزة ! ! . .

فلنأخذ العلم — يارعاك الله — عن الغرب . . ولنسابق الريح بعد ذلك فى كل مضمار ! ! . . آه ياعزيزى ! ! . . كم كنت أتحسر فى جولاتى فى الغرب . . فى أوروبا وأمريكا . . عندما كنت أتعرف بعائلات وأدعى لزيارة بيوتها . . وأجلس إلى موائدها . . ويجيء من المدارس الأطفال . . ويجلسون معنا يحدثوننا ونحدثهم . . وكأنهم رجال كبار . . فالطفل الرجل يجاب على كل ما يسأل بغير صد أو استهزاء أو إهمال أو سب . . فينشأ عارفاً أن له مكاناً تحت الشمس . . أن له ما للرجال من حقوق . . وعليه ما عليهم من واجبات ! ! . . آه . . لو أطلقت لقلمى العنان أتحدث عن التربية الغربية للطفل لاقتضانى ذلك مائة صفحة . . ولكننى مضطر إلى القصد يا أخى ! ! . .

ربما تقول عنى ياعزيزى أننى رجعى . . أومتردد فى الرأى . . أو مشوش الأفكار . . أو خائف . . خائف . . لاأدرى مم . . فأقول لك : فى نفسى فيض من حديث وأفكار وإننى حازم حازم . . فلا أعرف الحلول الوسطى التى لايرضى بمثلها إلا الجبناء . فأنا مغامر بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى وهوايتى فى الدنيا غير الكتابة الرياضة الشاقة التى نجهد النفس . . وتروضها على احتمال الصعب فى الحياة . . ولذلك لاأعرف الرأفة والحنان فى التربية . . وإننى احتقر المرأة التى تعطى من رأفتها وحنانها

قسطاً كبيراً لطفلها فتعوده الدلال .. والترهل .. وضعف النفس .. فينشأ الطفل بعد أن يشب ولا صلة له بالخلق القوى. ونحن فى هذا الشرق أمم تافهة مطموع فيها .. من الغرب .. فإذا لم تنشأ فى أجيالنا روح المصارعة والمنافحة والكفاح وأخذ الحقوق من براثن الأسد .. كان حالنا كحال الأذلاء من الآباء والأجداد .. والزعماء .. الأئمة .. الخونة .. الذين فرطوا بكل شىء وبجميع مصالح البلاد .. فى سبيل الغنيمة والسلامة .. والجاه العريض .. والمقاعد الوثيرة ..

وإننى لأعجب بالعصرية (المودرنزم) التى تحمل بين طياتها الوقار .. والكرامة .. وعزة النفس .. وبعبارة أخصر .. لو نشأت أجيالنا نشأة عسكرية صحيحة .. لما تسربت هذه النقائص جميعاً إلى القيم الاجتماعية .. فالجندية نظام .. نظام .. نظام .. فى كل شىء .. وطاعة .. وما أحوجنا الى هذا الدستور .. فى جميع مرافق حياتنا .. فى البيت بين الرجل والزوجة .. وبين الوالدين والأعقاب .. وفى المدرسة .. وفى السوق .. وفى الشارع .. وفى دوائر الحكومة .. واحسرتاه ! وأين ؟! .. فى كل بقعة من بقاعنا .. وفى كل يوم من أيامنا !.

سيدى .. أراك تتمطى .. وقد ثقلت جفونك .. ألم أقل أنك لن تستطيع معى صبراً ! ..

قال صاحبي : خاتمة المطاف أن تحدثنا شيئاً عن نفسك ..

قلت : أدركت الآن ياخبيث لماذا استدرجتني هـذا الاستدراج..أنا قمين إذا قرأت واحدة ما كتبت أن تنأى عني إلى المريخ .. لأنها ستتصور ثورة جامحة .. إعصاراً دواراً .. إنساناً شاذاً يعيش في عالم غـير شاذ !! .. لامعقولا بين معقولين .. لاواقعياً بين واقعيين !! .. ولكي أؤكد لك ماقلت أزيد :

أنا في الخامسة والثلاثين كما قلت .. طولي ١٧٦ سم .. وزني ٧٢ كيلو .. ألبس هنا مايلبس البسطاء من سكان هـذه الصحراء الحبيبة الفاتنة المغرية .. هذه الصحراء صانعة الرجال والفحول والأبطال ..

انطوائي .. لاأحب مخالفة الناس إلا بقدر .. ولأن في الانطوائية انتاجا .. وفي الإسراف في مخالطة الناس مفسدة وضياع وقت ونيل بعض شرور الناس .. أثق بالناس ثقة عمياء .. مع علمي بأن الغدر والخيانة والقتل من طباعهم .. سهلة عشرتي اذا لم أظلم .. فإذا ظلمت فإنني أعرف كيف أبلغ حقي بأخف الأساليب والوسـائل .. وأقرب الطرق .. لاأحمل الحقد بين جنبي .. فالحقد والحسد من خلائق الأخساء الأنذال الجبناء .. إلا أنني أعامل كلا بمعيار خاص .. بقدر

مايمنحنى من الود . . أخدم الناس جميعا بلا استثناء . . حتى الأعداء . . فيما لو كان لى أحد منهم ! ! . . فلا يخضع الرجال إلا للحسنى . . إدفع بالتى هى أحسن . . فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . . وما يلقاها إلا الذين صبروا . . ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم . .

فالصابر . . إنما ذو حظ عظيم . . ماأجل فصيلة الصبر ! !

وإذا مروا . . باللغو . . مروا كراماً ! ! . . لاأعير اللغو أى اهتمام ياأخى . . فمادام الناس يتكلمون بما لايصيبك ولايؤذيك . . فتجاوز . . واصفح . . ومر كريماً ! ! . .

هذه مثلى ياأخى . . وقد أستطيع تطبيقها أحياناً وقد لاأستطيع . . فعند ماأثور فأنا ثور . . ولكن عند ما ينبغى أن يثور المرء لكرامته . . مثلا . . فأنا ثور لدقائق قليلة . . انقلب بعدها إلى حمل . . وديع . . سهل الانقياد . . لاصعب المراس . . أليست هذه المتناقضات كافية ياأخى لأن تنفر منى أى قلب . . أى فتاة . . أية عاقلة ؟

ثم . . ياعزيزى . . أنا . . مع بساطتى . . أقطن بيتاً صغيراً من حجرات صغيرة أربع . . أثاثها . . بسيط . . بها بعض وسائل الحياة البسيطة . . أملك — والملك لله — سيارة بسيطة

تنقلنى إلى محل عملى أحياناً كثيرة . . وحول بيتى قطعة أرض وشجيرات قصيرات . . بيتى مطل على البحر . . لأسبح كل ليلة فى الخيال الفسيح . . وعندى عمل أكسب منه كما يكسب بسطاء الحال من الناس . . صلتى بالناس جميعاً طيبة . . كباراً كانو أو صغاراً . . ولكن شيئاً واحداً لاأستطيع أن أتواضع فيه هو أن فى برنامجى إخراج كتابين على الأقل كل سنة . . هل أفيض ياعزيزى ؟ . . أرى مللا تطرق إلى نفسك . . فما أسخف المرء حين يتحدث عن نفسه ! ! . .

نداء الحب ونداء المال

« . . . وعلى الفتاة العاقلة أن تستغل شبابها للحصول على زوج مناسب تستقر عنده . . وتؤلف بيتاً آخر متفرعاً منفرداً . . فلا يطعمها عطف أبويها فى الاتكال على ما يقدمانه من تنفيذاً لها لمطالبها . . . »

وهذا مثل آخر . . قصة أخرى . . من فجاءات القدر . . فجاءات العاطفة . . فيها يتمثل الصراع الرهيب بين الروح والمادة أو فلنقل بين الحب والمال . . أو بين العقل والهوى . . وكثيراً ما يكون الهوى القاهر الغالب . . فهناك أمثلة حية . . على أن المال كثيراً ما يخضع القلوب ويرضيها . . أو على الأقل يشبع كثيراً من مطالبها ونزواتها . . والفتاة فى هذه الحالة

واحدة من اثنتين .. إذا كانت ذات تربية رفيعة رضيت بنصيبها وقنعت بقسمتها . . وإن لم تكن كذلك . . شذت . . وبطرت . وداست النعمة . . فأصابتها النكسة . . وتأرجح مصيرها فى كفة القدر . . ونالت جزاء طيشتها ومغبة نزقها وحماقتها . . هذا إذا لم تحسن تحكيم عقلها . . وكان هواها هو المسيطر على تصرفاتها . . وهذا إذا لم تجد لها ناصحاً مرشداً . . يعالج قضيتها بالحزم أحياناً . . وباللين تارة . . إلى أن تثوب إلى رشدها . . وترجع عن غيها وباطلها . .

وأمامنا الآن قضية من هذا النوع .

* * *

« اختارى أحدهما : ابن خالك . . أو هـــذا الخاطب الجديد » . .

بهذا القول فاجأ الأخ أخته

وبهتت الفتاة لهذا السؤال الغريب المفاجىء . .

بماذا يرطن هذا الأخ . . إنها منذ نشأت ودبت الحياة فى صدرها . . وفقهت لغـــة النور فى القلوب . . لاتعرف ولا يعرف ذووها وأهل بلدها جميعاً إلا أنها على اسم ابن خالها ولنسمه (خيرى) . . فهذان الاسمان أسماء وخيرى منقوشان

فى لوحة القدر منذ الأزل . . هكذا خيل إليها . . وليس الأمر بهذه السهولة حتى يوجه إليها الأخ مثل هذا السؤال العابر . . إن الأمر يتعلق بالماضى وبالحاضر وبالمستقبل . . إنها رابطة القلب . . والدم . . والعهود . . والتفاهم المطلق . . والثقافة الجامعة . . والآراء المتفقة . . منذ ميعة الصبا . . إنها أحلام الشباب والجمال . . والآمال المعقودة . . والرجاء الباسم المنشود . . إنها تحلم بالساعة والدقيقة . . وتتحين الفرصة . . ليهيء خيرى ابن خالها الحبيب نفسه لتزف إليه . . ويبنيان البيت . . عش السعادة الذى طالما تخيلاه وبنياه فى مخيلتهما . . واستقر فى وهمهما . .

أما فتانا خيرى فهو شاب مرموق بين شباب جيله . . وسيم . . ذو عينين خضراوين يشع منهما بريق خاطف سالب . . لين المعاشرة . . ذو ظرف وكياسة . . ودعابة مرحة . . قد أتم تعليمه . . وانخرط فى سلك التعليم . . وهو يرتب حياته وبيته لاستقبال ابنة عمته . . لاتقرأ فى قيامه وقعوده ، فى حركاته وسكناته سوى الحب الذى استولى على جميع مشاعره وقنع به ورضى أن تكون مقدراته كلها مرتبطة بالمصير الطبيعى الذى خطه هذا الحب العميق . . وأحلام المحبين دائماً لا تحسب للزمن حسابه . .

لم يكن فتانا يحسب أن فى الدنيا من ينافسه أو يستطيع أن يجرؤ فيمد بصره فيطاول هذا الحب أو يعبث بجلال قدره . .

ولم يتعجل فتانا فيطلب يد ابنة عمته رسمياً بحسب الأصول والعرف والعادة . . بواسطة وجاهة من أهله ووجوه بلدته . . فهو فى مستهل عمله . . وهاهو يوفر المال اللازم ويشترى بمعرفتها الأثاث المطلوب الضرورى لبيت لائق . .

ومهما صفت الحياة أمام المحب .. ومهما خلت من الأوشاب والأكدار . . فإنه .. دائماً سريع الشك فى كل مايحدث أمامه .. سريع إلى التفسير والتأويل والتحليل . . وأحياناً إلى التحريف والهوس والتخريف . . ووضع الأمور فى أسوأ الاحتمالات وأبعد الفروض . . وما ذلك إلا لأنه يريد أن يطرد كل شبهة . . ويصل إلى يقين مابعده يقين . . كان فتانا يظن أنه قد ينافسه أو يطمع فى فتاته . . ابن عم لها . . حصل على إجازة الطب منذ زمن قريب . . وقد كان وجوده يزعج فتانا . . وما ذهب عنه روعه إلا يومَ علم بنبأ عزم الطبيب على مغادرة البلد إلى بلاد أخرى قرر أن يتخذها له مقراً وموطناً . .

عند ذلك فقط تنفس فتانا الصعداء . . وما أن علم بنبأ مغادرته البلاد تماماً حتى غامر فكتب خطاباً يبث فيه لواعج شوقه والأدوار التى مرت به حتى نجح بفضل الأمل المعقود

عليها . . وينتظر رداً منها فيه معانى اليقين التام . . والوثوق المطلق بأن لن يفسد عليهما خطتهما أحد . . تلك الخطة التى وضعا لها هيكلا من طين فبنيا بيتهما إذ ذاك وهما طفلان يلعبان . . ثم استقرت فى فكرهما وهما يدرسان ويعبان من مناهل العلم . . يستحثان الزمن لتحقيق آمالها ونضجت حتى أو شكت أن تأتى أكلها وقد خرج كلاهما إلى الحياة وأصبحا قادرين على التحقيق والتنفيذ . . وألصق فتانا طابع البريد على الغلاف . . وعاد منتشياً تملأ عينيه ابتسامة مشرقة . . فها قد نفس عن صدره بما تستطيع الحروف أن تكون خير وسيلة للتعبير عنه دون خجل أو وجل أو تقهقر . . ونام فتانا قريراً . . هادىء البال مستريح الخاطر . . حالماً بالجواب الايجابى . . الذى سيكون ولاشك بتجديد العهود . . حاثاً الخطى على الاسراع للوصول إلى تنفيذ الخطة المرسومة . .

* * *

ويشاء القدر أن يسوق بعض الملابسات فى أوانها ووقتها فقد وصل هذا الكتاب فى وقت كانت فيه فتاتنا شبه سجينة . . فى حجرة مظلمة . . لايتردد عليها فيها سوى أخيها الذى يردد فى أذنيها جملة واحدة . . « اختارى بين ابن خالك . . وهذا الخاطب الغريب » .

ولا تعرف عن هذا الخاطب الغريب إلا أنه كان بالأمس القريب منذ سنتين فقط لاغير . . عاملا بسيطاً . . ثم طباخاً فى مؤسسة كبيرة . . ثم متعهداً لتلك المؤسسة . . تعرفه يوم كان يمشى عارى الرأس حافى القدمين . . يحمل (الزنبيل) المثقل بالخضرة والفاكهة على رأسه . . يتصبب العرق على وجهه ويبلل ثيابه الملوثة التى اختلطت ألوانها حتى أصبح من العسير تقرير لون لها . .

ثم جاءت الحرب . .

والحرب تهدم القيم . . وتقلب الأوضاع . . وتمنح الفرص للمستغلين الذين يترقبون الثراء على الأشلاء والجماجم . .

فالموظف الشريف الذى كان قبلا يعيش عيشة مرموقة يسنده راتبه آخر الشهر . . أصبح أدنى من عامل بسيط يستطيع كسب مثل هذا الراتب بيوم وليلة . . وارتفعت الأسعار فأصبح التاجر الذى كدس بضائع لاقيمة لها متمنياً لو يتخلص منها بخسارة . . هذه البضائع تأتيه بالذهب الرنان . . حتى الفلاح جعلته خضرته وفاكهته ومنتجاته قادراً على أن يتزوج بدل الاثنتين ثلاثاً . . دون اهتمام بشروط العدل بينهما أو بينهن . .

وفجأة قفز الخاطب الجديد من عامل ساذج بالأمس إلى

متعهد كبير لعدة مؤسسات . . وفى خلال سنتين . . أصبح من الموسرين الكبار فى البلد . . وها إخوته الذين كانوا صبية أطفالا بلهاء . . قد أصبحوا شباباً يلبسون الفاخر من الثياب . . ويركبون الفاخر من السيارات . . ويتيهون جميعا على أقرانهم وأبناء جيلهم وأصبح الخاطب الجديد فى عداد وجهاء البلد . . حين يبلغ بلدته يفد الناس للسلام عليه وتملقه وإكبار عصاميته . . زرافات ووحدانا . . وهو يتبرع لهذه المؤسسة الخيرية بالمئات ولتلك المؤسسة الثقافية بالآلاف . . ولأعمال البر بالمال الموفور وبهذا اكتسب القلوب والعطف بل التقدير . . ونسى الناس أمسه . . ولكنه لايزال دميم الصورة بشع المنظر . . يحاول تغطية دمامته وكراهية منظره بالثياب النظيفة الحديثة لتضفى عليه وجاهة وأناقة . . وليجعل منه العز إنسانا آخر لاصلة بينه الآن وبينه بالأمس .

* * *

وحين تقدم هذا الخاطب الجديد . . لم يتردد . . أخو الفتاة لحظة فى القبول . . ولكنه طلب مهلة . . فدعا لالتئام مجلس من أقطاب العائلة . . وفاتحهم بأمر تقدم الخاطب الجديد . . فبهتوا . . ولم يحيروا جوابا . . لعلمهم جميعا أن هذه الفتاة معروفة منذ الصغر على اسم ابن خالها . . ولكن الأخ . .

رجل داهية ، ، ذكى ، ، ثعلب ، ، من رجال الأعمال الكبار فى البلد . . الذين يقدرون قيمة المال . . وأثره فى العالم . . وهو هادىء الطبع .. قوى الحجة .. رائع البيان .. ذو أسلوب طلى خـــلاب فى الجدال والنقاش . . يصل الى مايريد بهدوء أعصاب ورجاحة فكر واتزان قاهر متسلط وهو فوق هذا طموح .. يريد تقوية أواصر العائلة وشد أزرها وتنمية كيانها عن طريق مصاهرة المال . . فما كان منه الا أن أقنع الجميع بوجاهة هذا الخاطب المتقدم . . وضرورة قبول عرضه مبدئيا إذا وافق الأقطاب المحترمون . .

إزاء ذلك لم يكن للأقطاب إلا الموافقة . . وأخذ على نفسه أمر إقناع أخته وإبلاغها موافقة مجلس أقطاب العائلة . .

كان الأخ يعلم بصلة شريفة بين أخته وابن خالها . . نهايتها شريفة . . هى الزواج . . ولكنه فى قرار نفسه . . كان يطمع بزواج أخته من ابن العم . . ذلك الطبيب الذى غادر البلاد إلى بلاد أخرى . . أما وقد مضى ذلك الطبيب فلم يكن لديه مانع من زواج أخته بابن خالها اللهم إلا إذا تقدم خاطب آخر يفضل هذا الأستاذ القليل الدخل وحين وأتت الفرصة الذهبية الآن بتقـــدم الخاطب المرتقب . . لم يشأ أن تفلت من يده . .

وتقدم إلى أخته المسكينة فى حجرتها الضيقة ليبلغها قرار الأقطاب . . فانفجرت باكية . . معولة . . وانسكبت دموعها انسكابا على صفحة خدها الجميل . .

* * *

وفاجأت أخاها بالرفض البات . . وعدم رغبتها فى الزواج فهى تقدم للانسانية مجهوداً كبيراً . . إنها تعلم بنات الجيل . . وهى سعيدة بهذه الخدمة الجليلة ،،

ـ ولكن ياأختاه ،، لابد لكل فتاة من مثل هذه النهاية . ،لابد من التفكير فى المستقبل جديا ،، خل عنك الأوهام والأحلام ،، إذا كنت تعتزين الآن بشبابك ونضارتك ،، وهذه الحيوية النابضة ،، وما تتمتعين به من جمال عذب ،، فهذه أيام الشباب يا أختاه وفى هذه السن المبكرة ،، تصادف الفتاة حظاً ،، وتعثر على خطاب ،، غير الخطاب الذين يأتونها عندما يولى شبابها ،، وتذهب نضارتها ورواؤها ،، ويؤول جمالها وتستحيل حيويتها إلى خطوط فى الجبين ،، وخطوط أخرى فى الخدود ،، وثقوب فى الأسنان ،، وذبول فى الأيدى ،، وشعرات بيضاء فى الرأس ،، وضمور فى الصدر ،، وفتور فى النشاط ،، وكلال فى الأعصاب ،، وبروز فى العروق ،، واهتزاز فى تألق شعاع العين ،، نعم ياأختاه ،، هذا ما يكون

من أمر الفتاة حين يولى شبابها ، وما أسرع ما يولى وعلى الفتاة العاقلة أن تستغل شبابها للظفر بزوج مناسب تستقر عنده وتؤلف معه بيتا آخر متفرعا ، وعليها ألا تعتمد قط على علمها ونشاطها فى شبابها للكسب ، وإعالة نفسها ، والادخار ، وأن لا يطمعها عطف أبويها وأهلها ، فذلك كله قد يكون مادامت تكسب ، أو تنتظر من يهيء لها البيت النظيف والمعيشة النظيفة ، ويستطيع أن يكفيها ويهيء لها مطالبها المتعددة ، وأما حين تتقدم بها السن وتصبح عالة على أهلها ، فالويل لها ، الكل يتنكر لها ، فتحس بأنها ثقيلة وفوق هذا فإن الفتاة تؤدى خدمة أكبر للوطن حين تنجب رجالا صالحين ، ،

ولعل أخاها تعمد أن يبالغ فى تشويه صورة العانس . والمصير المظلم الذى ينتظرها .

— بل أعطنى يا أخى مهلة للتفكير ، ، فلست أقوى الآن على الكلام .

* * *

خرج أخوها من عندها ، فأرسلت فى التو خبراً إلى ابن خالها تنبئه فيه بجليه الأمر ، وتستنجده أن يهرع لانقاذها . فجمع صاحبنا شتات عائلته وأقطابها فى الحال وأرسلهم إلى الأخ خاطبين فأمهلهم الأخ وراوغهم ، ولم يبت معهم بأمر ، فهو

كما قلنا داهية لا يريد أن يفلت خيط واحد من الخيوط من يده وقابلهم وكأن لا أثر قط لمعركة نفسانية تنشب فى بيته . وبعد أن خرجوا من عنده دخل حجرة أخته .

. . .

ـ لدينا الآن يا أختاه خاطبان ، اولهما رجل عادى هو ابن خالك ، ، لا يملك من المال ما يستطيع أن يجعلك تعيشين إلا العيش البسيط التافه ، ولا يهيء لك إلا السكن العادى المتواضع ولا يستطيع تعليم أولادك إلا التعليم البسيط المحدود، ولا يستطيع أن يفتح بيته لكبار الناس وسراة القوم، ولا يستطيع أن يمكنك إلا من اقتناء الأثواب الرخيصة والجواهر المزيفة ، فتعيشين بين أترابك عيش الحرمان والكفاف ، وغدا تتجلى هذه الحقائق بعد الزواج لناظريك ، فتتبخر العاطفة ، ويحل النكد ، ويخيم البؤس على البيت .

والخاطب الآخر يا أختاه . . على العكس يستطيع أن يهيء لك جميع وسائل الحياة المترفة الرغيدة . . لك ولأولادك . . ستكاثرين أترابك جميعاً باللباس والطعام والأثاث . . والبذخ . . والسيارات . . والحلى والجواهر . . وفوق هذا وذاك . . وأهم من هذا كله . . أنك وأنت المتعلمة المهذبة التى تقدرين قيمة

العلم . . باستطاعتك فى الغد أن تعلمى أبناءك أرقى تعليم فى أعلى الجامعات . .

وأزيدك . . أن أملنا يا أختاه كان فى ابن عمك الطبيب أن يتقدم قبل سفره لطلب يدك . . فقضى على أحلامنا . . ولذلك ليس من كبير مطمع لنا فى ابن خالك الرقيق الحال . .

وغداً . . عند ماتجدين كل وسائل الحياة ميسرة أمامك ستدعين لنا بطول البقاء . . وستجدين أن أخاك يريد لك الخير ويطمع فى إسعادك . . فالحياة صراع . . والبقاء للأصلح . .

وقبل أن يغادر الحجرة توقف عند الباب قليلا وعطف عليها قائلا :

— خذى مهلة أخرى للتفكير . . ولكن لا تنسى قط ولا تهملى شأن مستقبلك ومستقبل أولادك . . وتحسين مركز العائلة الاجتماعى . . والفوائد المادية التى تجعلك فى رغد وبحبوحة من الحياة هذا فضلا عن أنك عند ما تألفين زوجك ستحبينه لأن هذا من خصائص الفتاة الكريمة العنصر . . وتقاليد المرأة العالية التربية . . الرفيعة التهذيب . . القوية الخلق العزيزة النفس

* * *

وترك أخته فى شبه ذهول حالم . .

إنه أنار لها السبيل . . وفتح أمام عينيها آفاقاً جديدة . .

ودلفت الأم إلى مخدع ابنتها . . تقدم لها المرطبات والمنعشات والبنت عنها لاهية بأفكارها . . وبأمر تقرير مصيرها . .

. . .

وبعد ساعة من تفكير عميق . . وتحليل دقيق . . ومحاكمة سافرة . . تميل إلى الواقع . . وتبتعد بها قليلا قليلا عن الوهم والخيال . .

بعد ساعة . . دخل عليها أخوها للمرة الأخيرة . .

فتهلل وجهها الشاحب . . بابتسامة صفراء حزينة . . تحاول بها أن تدفن آمالا كباراً انهارت . . وصروحاً جبارة اندكت وهوت . . كانت وكأنها فى تيه فسيح قاحل أجدب . . لج بها التعب والسغب والظما . . وفجأة لاح لها بريق من بعيد . . لاتجزم بانه ماء . . أو أنه بريق سراب خادع . . ولكن تشبثت به . . والتصقت به . . وغالبت دموعها . . ونطقت بكلمة واحدة .

— ياأخى أوافق على ماتوافق عليه أنت . .

فاصنع ماشئت . . واردفت قائله : ولكننى أفضل ألا أتزوج أبدا . .

. . .

وبعد ساعة كان مجلس الأقطاب ملتئما للمرة الثانية يقرر الموافقة على الخاطب الغريب .

وفى الوقت نفسه .. كان فتى .. يذبل ويتساقط . . كأوراق الخريف . . ويستقر فى مكتبته . . يبحث عن خطابات العهود والمواثيق والآمال العريضة . . وعن كل كتب تمجيد المرأة .. التى طالما أرهق المؤلفون منذ أقدم العصور أنفسهم فى كتابتها. كان ينتقى هذه الكتب من مكتبته . . ويقذف بها الواحد بعد الآخر . . فى وسط الغرفة . . ثم ينثر فوقها تلك الخطابات التى كانت لديه أعز مايملك . . وأوقد عود ثقاب . . أشعل منه سيجارته . . ومده إلى ذلك الركام من الأوهام . . ولم يغادر الغرفة إلا بعـــد أن أتت النار على هذه المجموعة من الغش والخداع والتدليس وامتدت النار فالتهمت الأثاث الذى اختارته هى لبيتهما المزعوم . . وكادت النـار تلتهمه هو أيضاً وهو ساكن واجم . . لولا أن أنقذ فى آخر لحظة ..

المجاهيل الثلاثة

(العقل الذى لا يفيد من العلم ويكبح العاطفة ..
لهو عقل شاذ محموم . . والعلم الذى لا يساعد
صاحبه لهو علم مشوه ذميم . .)

تم التكافؤ . . وحلت الأزمة . . التى شغلت الأبوين سنين عديدة . . أو هكذا شبه للناس جميعاً ! . .

وتقدم للوالدين خاطب شاب . . جامعى . . خريج إحدى الجامعات العالمية . . فى الاقتصاد . . مالبث حتى تبوأ مركزه اللائق . . وشغل مركز المستشار المالى للدولة . . تقدم يطلب يد ابنتهما . . تلك الفتاة . . التى حصلت على شهادة أستاذة فى

الآداب فى العام المنصرم من جامعة أخرى . .

ووافقت الفتاة . . وأعلنت الخطوبة . . وكان أعظم ماسر له والد الفتاة خطاب تهنئة وصله من ابن عمة الفتاة . . ذلك الشاب الذى كان دائماً واقفاً حجر عثرة فى سبيل تقرير مصير هذه الفتاة . . يتمنى هذا الشاب فى كتابه لابنة عمته كل سعادة وهناءة . . فى حياتها الزوجية المقبلة . .

ولكن وراء هذا الخطاب قصة . .

فابن عمة الفتاة . . شاب . . كان يعلق كل آماله فى الحياة على هذه الفتاة . . كانت مطمحه . . وأمله المشع المرموق . . فما باله الآن تقاعس . . وترك الميدان . . ألأن منافسه قوى . . لا قِبلَ له على الدخول معه فى معركة حاسمة . . لا . . هنالك سر . . ربما بانت خلاله شهامة ومروءة . . وعلو خلق . . بل تضحية من جانب هذا الشاب الفاضل ! ! . .

. . .

مرض مستعص . . دهم صاحبنا هذا . . قرر الأطباء أن شفاءه غير مضمون . . ذوى على أثره صاحبنا . . وذبل . . وكلح وجهه . . وغاضت نضارته . . وتلاشت آماله . . فآثر التسليم . . ورأى أنه يجدر به كشاب معقول أن لا يبقى حجر

عثرة فى سبيل مستقبل فتاة أحلامه .. ومحط آماله ..

أما والد الفتاة فهو رجل عرك الدهر .. وحنكته الأيام. ووصل إلى مرتبة محافظ المنطقة .. ولما درى بمرض هذا الشاب .. أخذ عائلته .. وبنته العزيزة هذه .. وقام بسياحة تعليمية فى بلاد الله .. لم يترك بلداً من البلاد التى تستحق الذكر إلا حل به .. حتى العالم الجديد .. حج إليه وقصده .. وجال فى ربوعه وعجائبه .. وعاد بعد غياب عدة شهور .. كانت فى نظره شهور نقه .. واستفادة ونسيان .. بل شهور تفتح آفاق جديدة لناظريها ..

وحالما عاد إلى قواعده .. كان والقدر على ميعاد .. فقد هيأ الله له هذا الخاطب الكفؤ الذى طلب يد ابنته .. وما أخذ موافقتها حتى أعلنت الخطوبة .. ووزعت الحلوى .. وعمت الفرحة كل مكان، واطمأنت العائلة إلى أن العقل وحسن التفكير والتصرف هى التى وضعت الأمور فى نصابها ، وحلت أزمة كانت من الأزمات العاطفية الشديدة

. . .

لم تطل فترة هذه الفرحة أكثر من شهر واحد

فقد تلقى الوالد فى صباح يوم من الأيام «كتاباً من ابن

عمة الفتاة . . الذى عهدناه مقعداً . . طريح الفراش . . يئن من الأوجاع والآلام . . وإذا بالكتاب أنذار منه للأب . . بوجوب فسخ الخطبة .. فها هو يعود .. إلى الميدان كما يزعم .. موفور الصحة والنشاط . . متجدد الآمال والأحلام .. موطد العزم والحزم . . مستهيناً بكل صعب فى سبيل الحصول على درة العائلة التى كانت .. ولا تزال .. محط آماله .. ومطمح أنظاره .. منذ فتح عينيه على الحياة والأمل والحب . .

وفى اليوم الذى وصل فيه الخطاب إلى الوالد .. كان العبوس والنكد .. والتجهم والازورار .. يملأ قلب الفتاة ووجهها .. كذا دون سابق إنذار .. وأحالت الحياة العائلية إلى جحيم لا يطاق .. ففهم الوالد .. أن خطة تدبر فى الخفاء .. أن دسيسة أحكمت خيوطها .. وتجاوبت أصداؤها . . أن مؤامرة .. بارعة التصميم قد رسمت بإحكام ..

وأخذ الوالد الأمر بالحلم . . والعقل . . وجمع أقطاب العائلة . . وقد أحكم خطته .. على رد الكيد ودفع الدسيسة بالحكمة والمنطق . . وأعلن لهم جميعاً .. أن هذا العمل مناف للتقاليد العامة .. مخالف للعرف .. يقضى على سمعة العائلة . . فبعد إعلان الخطبة ليس من الشهامة والشرف والرشد التراجع .. ثم فاجأهم بمفاجأة بهرتهم وفتحت آذانهم . . قائلا :

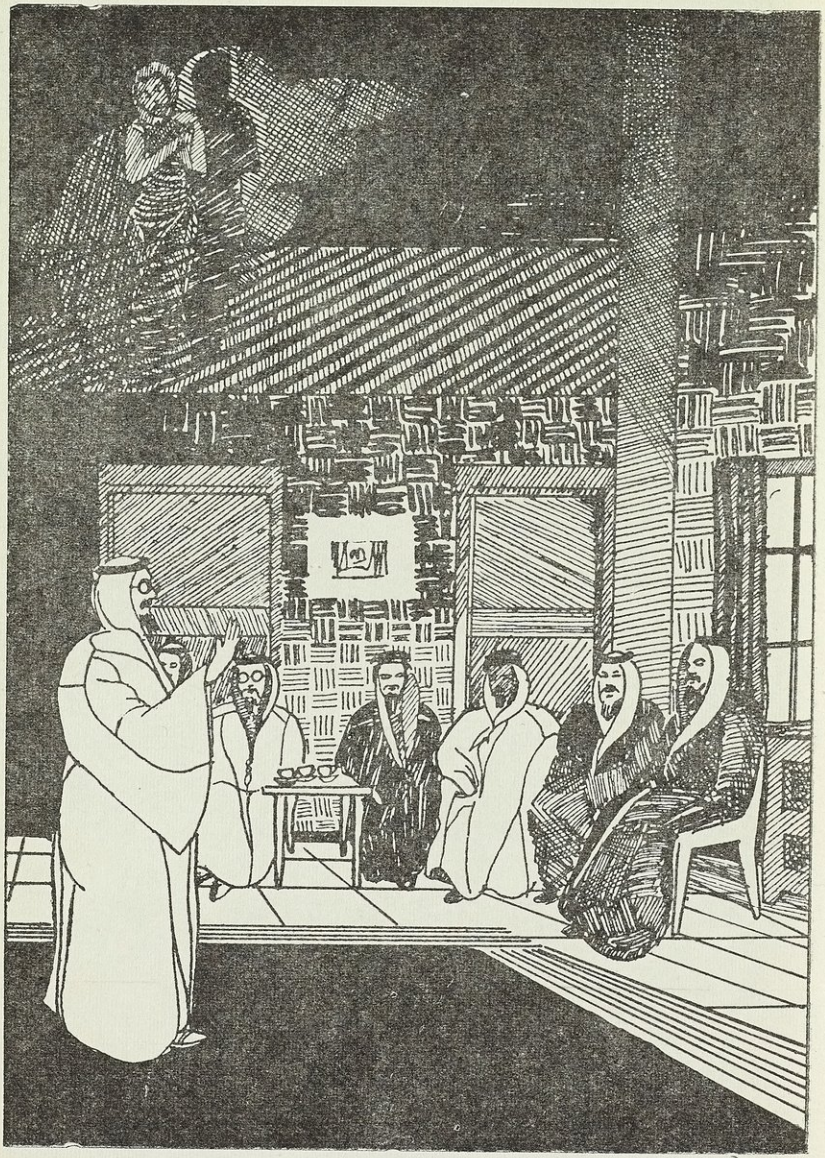

ومع هذا كله .. فهو متيقن أن فتاهم لايزال مريضا .. وأن مرضه عضال لاشفاء منه .. وهو مستعد لقبول التحدى .. فهو يعلن أنه إذا استطاع الفتى الحصول على تقرير صادر عن قومسيون طبى قوامه ثلاثة أطباء .. فهو مستعد لأن يعمل على إقناع الخاطب الغريب .. بالتراجع .. والتخلى .. فوافق مجلس الأقطاب على هذا الاقتراح .. وأكبر فى قريبهم وكبيرهم روح التضحية والعاطفه العائلية .. وانفضوا ..

إلا أن الوالد كان على يقين فى قرارة نفسه من أن ذلك مستحيل .. وإن الشفاء متعذر ..

وعندما أخفق الفتى فى الحصول على التقرير المنشود .. كانت العائلة كلها فى صف والد الفتاة .. مستعدة للانقضاض على الفتى وتمزيقه إرباً إرباً بكلمة واحدة من فم الوالد .. فى سبيل انقاذ سمعة العائلة ..

. . .

كان الوالد يعتقد من تجاربه وخبرته فى الحياة .. أن الحل الوحيد لمثـــل هذه الأزمات العاطفية العنيفة هو : البعاد .. فقط ..

فانتقل بابنته إلى بلاد أخرى .. بعيدة نائية .. واستقر

بها هناك . . فلم تكن النتيجة إلا زيادة ألوان الكدر فى البيت .. وكلما قسا على ابنته ازداد الأمر تعقيداً وتحرجا . . فها هى زهرة المجتمع . . الفتاة التى كان يضرب بها المثل بذكائها وتوقد ذهنها .. وأناقتها .. ونضارتها . . ونشاطها . . ها هى ذى تنفر من المجتمعات . . ويشحب وجهها . . وتستهتر فى إهمال نفسها وثيابها . . وتنزوى . . وتضعف ذاكرتها . . ويخبو توقد ذكائها وألمعيتها . . ولا يعرف أحد فى البيت طعما لراحة أو هدوء بال . . وكلما دخل البيت . . ساد الصمت وتبين الاعياء والإرهاق فى وجة زوجته وابنته . . من أثر المشادات فى غيابه . . تدافع الزوجة عن وجهة نظرها . . والفتاة عن آرائها الحديثه . . ضاربة الأمثال بما تقرؤه فى كتب الأقدمين والمحدثين عن التضحية بكل شىء فى سبيل نداء القلب . . والوقوف بجانب العليل على أمل الشفاء . . والأم . . واحسرتاه للأمهات ! ! . . تسفه رأى ابنتها ضاحكة . . أن نداء القلب فى حالات المرض الذى قد ينتقل بالوراثة إلى النسل إنما هو جريمة .. والفتاة التى لا يكون تهذيبها وتثقيفها عونا على حل مشاكلها .. تكون قاصرة الإدراك . . لا يكون علما لها نافعها . . والعقل الذى لا يفيد من العلم ويكبح العاطفه لهو عقل شاذ محدود . والعلم الذى لا يساعد صاحبه لهو علم مشوه ذميم . .

والفتاة التى لاتهتدى بهدى ولاتنتصح بنصيحة . . ولاتعمل بمشورة والديها . . على الأقل فى قضية كهذه من البداهة والوضوح كوضح النهار . . لهى فتاة . . بطن الأرض خير لها من ظهرها . . وإذا لم يكن واقع الحياة ، . وحقائقها نبراس الفتاة المهذبة بدلا من وهمها وخيالها . . فلا خير فى علم ولا كتاب . . والفتاة التى لاتبالى بسمعة العائلة وكيانها ومركزها الأدبى . . بل لاتحسب حسابا لأن تميز بين رجل مأمون المستقبل عالى المركز . ظاهر الوجاهة . . وبين رجـــل بسيط تافه . . عليل . . لهى فتاة لاتستحق الانتماء إلى نسب العائلة وأصلها . .

والفتاة . . صخرة . . لاتلين . .

. . .

ولكى يعجم الوالد عود بنته . . أشار عليها بواسطة أمها بأنها إذا كانت قد عزمت عزما أكيداً لارجعة فيه عن تصميمها فلها أن تعمل ماتريد دون إرادة أبويها . .

وفهمت الفتاة معنى هذا التهديد . . فأجابت أنها لن تخرج على طاعة أبويها . . وما تريد أن يتم أمر إلا بموافقتهما المطلقه ، ولن تقدم على إنجاز أمر دون أن يكون لهما فيه الرأى الأخير فاطمأن الوالد إلى أن ابنته لن تخرج قط عن طاعته وتقاليد الأسرة . . مهما لجت بها العاطفة . .

إذن ، . فهنالك أمل فى الوصول إلى حل . . وإلى تغلبه على تلك العاطفه الشاذة المتأججة التى لم تهدأ بعد . .

وما زال الوالد يعتقد . . برغم الكدر واكفهرار الجو العائلى . . وبرغم مايتجرع كل يوم من غصص بمشاهدة ابنته تذوى . . وتشحب . . تهمل نفسها . . وثيابها . . وتنزوى من المجتمعات . . التى كانت زينتها وزهرتها . . مازال يعتقد أن هذا البعاد وهو خير علاج لشفاء ابنته .. حتى طال الأمد .. وامتد إلى عامين . . وهو بهذا البعد يحاول أن يبقى سر ابنته مدفوناً بين جدران أربعة . . يعالج أمره هو وزوجته . . وبذات الوقت . . يبعد كل أثر للشك فى نفس الخاطب الصابر الذى يطمع فى أن ينال زهرة المجتمع التى ستساعده فى تكوين مركزه .. وفتح بيت مثالى . . طالما حلم بالسعادة تخيم عليه .. متقعداً أن التقارب الذهنى والعلمى . ، والتكافؤ ، ، مطلوبة جميعاً لتكوين سعادة كهذه فى مخيلته ، ،

* * *

وبعد عامين ، ،

انتهت سلسلة والكدر والغصص والحرقات ، ، فى هذا البيت بعد أن اقتنعت الفتاة بأن لامناص من الإذعان لرغبه والدها ورأيه ، ،

ولكن . . .

وبدأت سلسلة أخرى من الكدر ، ، والمشاكسة والغصص في بيت الزوجية الجديد ، ، وكان على عالم الاقتصاد ، ، أن يستعمل لوغاريتماته ، ، وعلومه ، ، فى حل هذه المعادلة الجديدة الطارئة ، ، التى لم تكن بحسابه ، ، ولا درسها على أستاذ من قبل ، ، كان عليه أن يدرس فن الحياة ، ، ليتوصل إلى حل معضلة عويصة بعيدة كل البعد عن مفهومه ، ، مستعصية على إدراكه وكلما افترض المجهول (س) ، ، وجده إما (ص) أو (ع) ، ، أو الثلاثة المجاهيل معا ، ،

ارتعاشات قلب

(هذا القلب الذى يبعدك عن عائلتك وأطفالك)

عند ما يكون الإنسان مصمماً على أمر بينه وبين نفسه .. فإنه يلتمس الأعذار بشتى ألوانها للوصول إلى بغيته . . وكثيراً مايتخذ من موافقة أى صديق ذى رأى ذريعة لتنفيذ مأربه وسنداً لبلوغ غايته غير ملتفت إلى الصيغة التى وضعت فيها الموافقة . . أهى صيغة مجاملة . . أم هى فى قالب مزح . . أم هى فى معرض دعابة أم هزل أم هزؤ . . أم خدعة وتضليل .. لايستقر فى روعه إلا صيغة معينة . . هى الإيجاب المشجع الذى يحفز المرء ويدفعه فى وجهته عساه يبلغ غايته . .

ولست أدرى ماالذى يدفع الأصدقاء فى كثير من الأحيان أو فى بعض الحالات إلى التستر وعدم الإفصاح عن حقيقة مايدور فى خلد أحدهم أو جميعهم ولاسيما فى الأمور الهامة من شئون الحياة . . التى كثيرا مايتوقف عليها مستقبل فرد أو أسرة كاملة . . أو عدة أسر . . أهو النفاق الاجتماعى . . والمجاملة التى تعتبر غشاً وخداعاً فى مثل هذه الظروف . . أم هى القناعة النفسية بأن أى رأى يخالف الرأى الأول إنمايعتبر غير مقبول . . لأنه قد يؤول إلى أنه تسفيه . . وعدم تحبيذ . . فلايكون فعله فى النفس إلا الإعراض والإهمال . . والإصرار على الرأى الأول لما فيه من إبراز الشخصية وتثبيتها . . أم هو — وهذا هو الأرجح — الخوف من أن يكون الفشل والانهيار . . وقد تكون المأساة سواء أكانت عاطفية أم مادية باتباع رأى مخالف لرأى الصديق . . فلا يكون من وراء ذلك إلا اللوم والتقريع . . وربما القطيعة بين الاثنين إلى آماد وآجال . .

وأمامنا الآن قصة . . جرت وقائعها منذ حوالى ربع قرن وقد بدأت فى ركن من أركان مطعم . . يجلس فيه صديقان . . بدا أحدهما فى تلك اللحظة وكأنه أسعد مايكون . . ابتسامة عريضة تملأ وجهه . . المرح والطرب يملآن أعطافه . . يطلب

صحاف الطعام ويقبل على التهامها بنهم ظاهر .. وصديقه يشاركه الفرح والمرح بمقدار ..

وكان الصديقان يعيشان قبل مجيئهما إلى هـذا المطعم فى البلد النائى .. كانا يعيشان معاً فى بلد عجيب .. ارتبكت فيـه القيم .. واختلطت فيه الأجناس .. وتطرف فريق من أهله فى الاتجاه نحو (المودرنزم) وفى الوقت عينـه تستطيع أن تشاهد كل أثر من آثار البؤس والفاقـة والعرى .. فى بعض أحيائه .. وبين كثير من طوائفه .. إما غنى فاحش .. وإما فقر مدقع .. ويريد الناس أن يمسكوا بطرف خيط التقـدم والمدنية .. والوثوب إلى الأمام .. فلا يتقنون معرفة هـذه الأصول .. التى تستغرق لدى الشعوب المتحضرة أجيالا وأجيالا فتحل بينهم النقمة .. ويشيع الاضطراب .. ولا يهتدون إلى السبيل القويم الذى يصـل بهم إلى ماينشدون .. فيفقدون شخصيتهم المميزة وخصائصهم التقليدية .. ويضيعون فى الوقت عينه فى دوامة جارفة لاترحم ضعفهم وترددهم بين القـديم والحديث ..

وكأنى بصاحبنا النهم .. الذى يلتهم صحاف الطعام تباعاً .. أهاجته ذكرى أيامه فى ذلك البلد الذى يبعد عن بلد المطعم هذا

حوالى ثلاثة آلاف ميل . . بين بحر وصحراء وجبال . . فمال على أذن صديقه وقال :

أتذكر أيام القاهرة (مثلا) . . ومتعة القاهرة . وجمالها . . وأيامها التى لاتنسى . .

قال صاحبه وهو يحاوره : بلى . . إنها بلد النور والمعرفة . . ومحجة العلم والفضل . . وكيف تنسى فضلها . . وقد حنت علينا أطفالا نعب العلم من مدارسها . . وشبابا ملأت عقولنا . . وها نحن نعود بعد غياب السنين الطويلة . . لنساهم فى نهضة بلادنا اليوم وعمرانها وتقدمها . .

قال صاحبنا النهم — وهو من حجم مصارعى الثيران ولكنه متناسق العضل منسجم الهيكل متين التركيب قوى البنيان يبعث منظره على الرهبة وتحاشى الجدل معه أو النقاش فى نقاط قد تكون ذات أثر ليست فى صالح المتورط معه فى جدال عقيم . .

قال صاحبنا : دع عنك هذا الآن . . مارأيك فى (فلانة) التى كانت فى الحى الفلانى . . فى الدار الفلانية . . فى شارع كذا . . هناك . .

أجابه صاحبه : إنها فتاة طيبة . . لا بأس بها . .

قال صاحبنا : هـذا تعليقك عليها فقط . . لم لاتقول أنها فتاة رائعة . . مفرطة الجمال . . رفيعة الخلق . .

قال صاحبه : إذا كان هذا يعجبك فإننى أؤيد كلامك . . ولـكن . .

لم يدعه صاحبنا يتم كلامه . . وكأنه خشى من لـكن هـذه . فاستطرد يقول :

لقد عزمت على الزواج منها . .

فانتفض صاحبه . . وتغيرت ملامح وجهه تماماً . . فصاح فيه قائلا :

ولـكنك ياعزيزى متزوج . . ولك أطفال كالملائكة من زوجتك الحالية . . وهذا إجرام . . لأنك بعد لست بالموسر الذى يستطيع الانفاق على بيتين واقتنـاء زوجين . . وهى التى تصفها بهذه الأوصاف المبالغ فيها . . لاتستحق خلقاً ولاخلقاً اهتمامك المفروط بها . .

فحملق صاحبنا فى وجه صاحبه . . وتغير لونه . . وصعد الدم إلى رأســـه وقال . أعندك مايثبت ماتقول . . ألديك البرهان . . وهل رأيت أنت بنفسك أو سمعت من أى مصدر موثوق به مايشين أو ماله مساس بسمعتها ؟ ! . .

تراجع صاحبه .. ووجم .. وأجفل .. وأدرك أن الأمر جد خطير .. حتى أنه قد يكون طعناً فيمن يحتمل أن تكون شريكة حياته ومستقبله .. وكان هذا التراجع فى نظر المراقب المنصف فى مثل هذه الحالات .. هو أشد أنواع الجبن .. لأنه لو استمر فى مهاجمته لهذه التى تعلق فى حبائلها شاباً متزوجا أبا لأطفال لا تستحق إلا كل تحقير وامتهان .. حتى لو تعرض لإعراض وازورار صديقه عنه موقتا .. فما يلبث حتى يعود فيعرف مدى ما يكنه له صديقه من حرص على مستقبله ومستقبل بيته وأطفاله ..

وكل ما حدث أن صاحبه تراجع حين حملق صاحبنا فى وجهه وخشى أن يبقى من وراء احتدام النقاش معه أثر فى وجهه أو أضلاعه .. فعاد يفسر أنه ما دفعه لكلامه هذا إلا الرأفة بزوجته وأطفاله .. فقل تحديق صاحبنا .. وخفت حدة ثائرته .. وزالت غضبته .. وهدأت أعصابه .. وأفرخ روع صاحبه بجانبه .. وانتهى الحديث بينهما عند هذا الحد ..

* * *

وذات مساء فى جلسة هادئة جمعت بعض الأصدقاء أخذ يحدث صاحبه فيقول :

مسكين صديقنا هذا .. فهو على ضخامة جسمه ومتانة هيكله .. يحمل قلبا كالحمل .. إنه وديع بسيط .. ولست أبالغ

إذا قلت أن به غفلة . إننى أعرف هذه الفتاة التى شغف بها ... وفتنته . . واستأثرت بقلبه دون زوجته وأطفاله . . إنها فتاة لعوب ذكية . . تستطيع أن تكون الآن ملاكا طاهراً وبعد دقائق معدودات تكون شيطانا رجيما . . تستطيع أن تتكيف وتلبس القالب الذى يعجبك . . فإذا أردتها مستكينة هادئة طيعة كانت كذلك، وإذا أردتها أن تظهر لك الأمانة والاستقامة والود العارم . . ظهرت أمامك صورة ناطقة للوفاء والولاء والقناعة والاستكفاء . . فخدعتك بهذه المظاهر وخلبت لبك واستولت على عقلك وتركتك مدلها بها . . تظن أنها الفتاة المثالية التى ترعى مصلحتك وتغار على مستقبلك وترضى منك بأقل القليل . .

كل هذا ليس من الأهمية بقدر مايظن هذا المسكين أنها وفية له كل الوفاء . . وتبين سذاجته عند ماحدثنى قائلا أنه سأل البقال المجاور لبيتها فأنبأه أنها فتاة عزيزة . . شريفة . . لم يرها ولا مرة واحدة قط تخرج بصحبة أحد . . فأيقن المسكين أن قلبها وقف عليه . . ولكن ماأقول . . وأنا . . أنا . . صديقه صحبتنى ثلاث مرات . . إلى السينما . . وإلى نزهات مختلفة . . نعم !! . . لم يكن من وراء صحبتنا شيء أكثر مما لايتحرج شباب هذه الأجيال فى إتيانه . . من دعابة . . ومزاح . . وبعض

لمسات . . تمر ببعض المواطن الحساسة من الجسم مراً رفيقا وادعا . . لايصل إلى حد الإثارة والجموح . . فإنها تعرف متى تكبح الجماح . . وتلوى العنان . .

هذا . . أنا . . على ضعفى . . ومعرفتها مدى علاقتى بفتاها هذا المسكين صديقنا . . الذى يزعم فى استعلاء بأنها له وحده . فكيف يكون حالها مع من تعرف أن لاعلاقة تربطه بفتاها . . ومع شباب قد لايحملون مثل ما أحمل من ضمير ووازع . . ومخافة عواقب ! ! . .

* * *

بعد أن سمعت زمرة الأصدقاء هذا الحديث . . انسحب أحدهم بهدوء . . معتذراً بأنه على موعد هام . . فسمح له . . وأخذ طريقه إلى بيت الجثة الضخمة . . يطرق بابه . . فى الليل . فخرجت الجثة إليه وأطل من الباب طفلان من أطفاله سلما على صديق أبيهم الزائر . . فسلم عليهما بشوق وقبلهما فى حنان موفور . . ودخل إلى صالون البيت مع صديقه . . وبقياوحدهما بعد أن طلب إلى صديقه صرف الطفلين الحبيبين . . وإقفال الباب لأنه قادم للتحدث إليه فى أمر خطير . .

وفاجأ صديقه بالحديث قائلا :

لست أخاف منك . . ولو بلغت ضعفى ما أنت عليه من

قوة الجسم والعضلات .. سأقدم لك حقائق ثابتة ثبوتى أمامك الآن . . فإن شئت صدقتها .. وإن شئت كذبتها وأهملت شأنها فتكون فى الحال الأولى رجلا ذا مروءة وشرف وفضل . . . وفى الحالة الثانية تكون نقيض ذلك تماما . .

أنت تحب فلانة . . وترغب فى الزواج منها . . ولا يعنينا ذلك فى شىء فالشرع أحل لك ذلك .. وإذا كنت قادراً على إعانة عائلتين أو غير قادر .. فذلك أمر يعنيك وحدك .. فأنت المسئول عما تملك يمينك ..

ولكن الذى جبن صديقك الذى حدثته بالأمس عن أن يواجهك به هو ما سأقوله لك الآن :

إن فلانة حبيبتك المفتون أنت بها . . تنظر لك بطهر الملائكة . . وتمنحك الود والوفاء . . وما هو إلا طهر مزيف وود براق ووفاء زائف . جهز أعصابك لتلقى الصدقة بثبات وجلد . . لقد جبن صديقك عن أن يحدثك عما حدثنا عنها . . لقد خرجت معه ثلاث مرات فى نزهات . . ودعابات . . وغزل ولمس وحس وقد كان يود أن يظهرك على هذا كله . . لولا أنك حملقت فى وجهه . . فخشى أن تشوه عضلاتك هذه معالم وجهه ..

ولكن أنا أقول لك ما جرى ولست أخشاك لأنى أقول

ذلك لمصلحتك ومصلحتك وحـــدها . . وحرصا على بيتك وسمعتك .. وهؤلاء الأطفال الأبرياء كالملائكة . إنك تريد أن تنهار .. وتتدهور .. فأنا الآن آخذ بيدك .. وأقيل عثرتك .. وأرفع رأسك .. وأمسح عن جبينك ما أوشك أن يعلق به من ذل وعار ومهانة أبدية ..

حطم قلبك وعد إلى زوجك وأولادك .. قانعاً راضياً .. مستسلماً . . وهبهم جميعاً قلبك . . فهم أحق به من غانية . . فاجرة تريد أن تهدم بيتك .. وتستأثر بهذه العضلات .. وهى لو كانت متزنة حقاً . . عفيفة حقاً . . لسعى الشبان إلى طلب يدها . . ولكن لا شك أنها بالغة الذكاء . . فى إظهار هذه العواطف والمبالغة فيها . . مع من لا يسكن قريباً من بيتها . . وهو بعـد . . قد انتقل إلى بلاد تبعد ثلاثة آلاف ميل عن بلادها .. لابد أنها تواصل رسائلها فتؤجج الشوق وتضرمه .. وتحبك أطراف الخدعة حتى يستقدمها على أنها الزوجة . . فتنتصر انتصاراً ساحقاً . . لأنها تكون قـد بلغت هدفها وصادت زوجا .

* * *

سمع بكامل جثته حديث صديقه . . وما أن انتهى من كلامه .. حتى هجم عليه .. فارتعدت فرائص صاحبنا . . وظن

أنه سيلوى رقبته ويتركه حطاما وركاما . . فكاد يصرخ فزعا مستنجدا . . ولكن لم يمهله فقد كان هذا الهجوم الخاطف ليطبع قبلة على جبين صديقه وقال كلمة واحدة فقط . .

أنقـــذتنى . . .

ونادى طفليه . . وقبلهما بشوق الغائب العائد من سفر أو المريض المتماثل إلى الشفاء . .

* * *

بعد أن كتبت هذه القصة . وفصلت حوادثها . وجدت لها تتمة . . شاهدتها بنفسى . . أفلس هذا الجبار حين كان متعلقا بتلك الفتاة اللعوب . . وأصبح لا يملك من الدنيا شيئا وفوق ذلك غرق إلى ذقنه فى الديون والرهون . . وتوقع الناس سجنه بين حين وآخر . . وحين أنقذه صديقه . . وعزف عن تلك الفتاة اللعوب وجه كل همه إلى بيته وعائلته . . وعمله . . وبعد شهرين أو ثلاثة عاد هـذا الجبار . . رجـلا . . حديد الأعصـاب . . رقيق المزاج . . ثابت الهـــمة . . رابط الجأش . . يسدد ديونه جميعاً . . ويقبل عليه الناس ويضارب فى الأسواق . . ويكسب فوائد جمة . . وعادت سمعته إلى سابق نقائها وعاد رجـلا يزين هـذه الجثة الضخمة عقل وتدبير وشجاعة .

فنّان يشقى بقلبه

توطئة :

فى كل زمان ومكان . . فى أزمنة التاريخ وأمكنته كانت المرأة إما بشير نعمة أو سبب نقمة .

تعليق :

قال الفنان : لقد انتصحت . . وقال صديقه وهو يحاوره : بل أخطأت . . وتسرعت . . وما كان أحراك لو تمهلت وصبرت . . إذن لنلت وظفرت . .

قال الفنان : ومع هذا . . فاجعل القصة . . هدية للجمال . . والحب . . والفن الضائع . .

قال صديقه وهو يحاوره : سأحاول . .

ولسنا نعلم أموفق . . هو فى قصته . . وهل جعلت منها أصباغ الفن . . الظلال أو الأنوار . . التى هى خليقة بالفنان المعذب . . أو لا ؟ ؟ ! ! . .

* * *

إنها فتاة لا بالمتعلمة ولا بالجاهلة . . ولكنها تكسب من مهنة شريفة كالحياكة أو التمريض مثلا . وأستبعد أن تكون مهنتها التعليم ! ! تكسب مايقوم بأود نفسها . . فهى ليست مسئولة عن عائلتها لأن عائلتها تعيش فى يسر وبحبوبة من العيش . . ولكنها أصرت على أن تخدم الإنسانية بالطرق المشروعة مادامت قادرة على ذلك . . فتراها سعيدة ضاحكة عند ماتؤدى عملها بنشاط وبشر . . مطمئنة إلى أن عملها سيثاب عليه . . فوق أنه يدر عليها مايكفيها لكى تعيش بين أترابها عيشة مرموقة . . تكفل لها ارتداء الثياب الجميلة . . واقتناء الأقراط التى تحلى بها أذنيها والأساور التى تزين بها معصميها . . كما تكفل لها تأثيث بيت نظيف تستطيع فيه استقبال لداتها وأقربائها والطبقة التى لا تكدح وتشقى طول النهار فيداعب الكرى أجفانها قبل الناس جميعاً لتستيقظ قبل الناس جميعا

كذلك .. لتهرول إلى عملها ثانية . . وهكذا تقضى طول العمر مجدة عاملة فى سبيل الحصول على المال الحلال . .

وكانت تستقبل الحياة بابتسامة عذبة . . ووجه مشرق ضاحك أبداً . . . كانت موفورة الصحة والنشاط . . . ممتلئة الأعطاف فى غير ترهل أو تنافر . . كان سحر عينيها وجاذبية وجهها ونضارة جسدها . . وخفة حركتها تجعل المرء ، إذا استطاع أن يلمحها ، يطيل فيها التأمل .. ويحن إليها حنينا خاصا وربما زانت هذا الجسد الريان والعضل الملفوف عفة طاهرة .. ووقار . . ورجاحة عقل . . فأصبحت مضرب المثل للفتاة الوافرة الرشيدة المتزنة فى ذلك الحى الذى تقطن فيه . .

وقدم ذلك الحى شاب ..رياضى .. قضى شبابه لافيما يقضى فيه الشباب أيامهم من متعة جياشة . . ولهو عابث . . وتبذير وتبديد . . بل كانت أيام شبابه كفاحا مستمراً . . وسياحات تعليمية متعددة فى أنحاء الأرض . . وإظهار كفاءة ومواهب فى كل عمل قلد زمامه . . أو منصب أسند إليه . . ومطالعة ودراسة مستمرة فى بطون الكتب . . وتدوين أخبار . . وكتابة مذكرات . . وتوطيد علاقات مع مختلف الأوساط . . حتى كان مثلا رائعا من أمثلة الشباب النشط المقدام . . الذى يريد لوطنه العزة والكرامة . . ويضحى من أجل ذلك بوقته

وصحته .. فاكتسب القلوب والعطف والتقدير . لم يكن يعرف للهزيمة معنى فى جميع أيامه . . بل كان دائم التفاؤل . . موقنا أن كل إخفاق لابد أن يعقبه نجاح وظفر إذا ماثابر المرء على مثله . . وحفظ أعصابه لايقر مبادىء التواكل والتخاذل والتسليم . . بل يؤثر السيرة الحميدة . . والخلق المتين . . والعمل الدائب . . والاعتزاز بالكرامة . . والتضحية بالكثير من أجل الاحتفاظ بالصداقة والود . . كل هذه المبادىء كان يؤمن بأنها كفيلة بتحقيق غالى أهدافه وعزيز أمانيه . .

كان يؤمن بسمو المثل فى كل حال .. وبأنها الراجحة الكفة فى النهاية وقد استطاع نتيجة لكده وجده فى أيام شبابه أن يدخر بعض المال . . وأن ييسر جميع لوازم حياته الضرورية وأن ينمى بعض هذا المدخر .. وأن يعد بين الوجهاء والأثرياء فى فترة قليلة من الزمن .. فقد كان همه الدائم أن يؤمن مستقبله ومستقبل أولاده وعائلته قبل الإقدام على مجرد التفكير فى الزواج .

عند ماتهيأت له هذه الأسباب جميعا تطلع حوله . . فألفى جميع هذه الأسباب ناقصة . . نعم ! ! . . لقد بنى بيتا بل بيوتا وسكن أحدها وفرشه وأثثه تأثيثا لائقا نوعا ما . . ولكنك تراه يقضى معظم وقته فى المكتبة بين الكتب . . ينقب عن

هذه الحادثة التاريخية أو تلك القصة الأدبية . . فإذا مافرغ من المكتبة بعد ساعات . . ترك كل شيء مبعثراً . . ولا يستطيع الخادم ولا الطباخ .. أن يعيد تنظيم مكتبته التنظيم المطلوب .. وهو يدخل أحيانا المطبخ ويصدر تعليماته للطباخ بأن يعد كذا ويعمل كذا وكذا ، وأن ينظف ويجعل كل شيء فى مكانه . . فيعود مرة أخرى ليرى كل شيء مبعثراً ويتبين أن تعليماته ذهبت أدراج الرياح . . وهو يريد أن يستيقظ فيرى القهوة فى انتظاره فى الساعة كذا . وكثيراً مالايجد حتى من يقدم له القهوة إذ يكون الصبي أو الطباخ لايزال يغط فى نومه . . أو لم يصل بعد من مكان قريب ذهب إليه ليأتى منه بحاجة .. أو أنه مريض أو متمارض . . بغية زيادة الماهية أو زيارة قريب أو السفر إلى الأهل والأحباب . . وكثيراً مايتعب فى البحث عن طاه آخر أو عن صبي حتى يستقر أمره فى البيت الذى تعب فى تأثيثه وحتى يجد فيه بعض الراحة والهدوء والتنظيم . . فهذه مشكلة عامة يشترك فيها الكثير من العزاب وربما بعض المتزوجين وربما أكثرهم . . كذلك ! !

بيد أنه استقر فى روعه .. أنه لن يتخلص من هذه الفوضى فى البيت إلا بالزواج . . مع أنه كان يخشى الزواج . . ظناً منه أن مشاكل الزواج كذلك قد تكون أعقد من مشاكل العزوبة

ولاسيما عند مايفقد التجانس التام والوفاق التام والاتحاد الكامل بين الزوجين .. فتكون الحياة فى البيت جحيما لايطاق. وهو يؤمن بأن اتفاق الآراء . . والتساهل فى البيت .. والحياة الوادعة الهادئة الرتيبة هى أساس العلاقة الزوجية . . ولكنه كان يحسب دائماً .. فيقول : لنفرض أن هذه الشروط لم تتوفر فى الزوجين فماذا يكون المصير ؟ ! . . لم يكن يعنيه إلا أن تلهيه زوجته المرتقبة عن مطامحه .. ودراساته وعن التدخل بينه وبين مطالعاته وكتاباته . . ذلك أن هذا النظام الذى اختطه لنفسه أصبح لديه قانوناً لايستطيع أن يتخلى عنه أو يتساهل فيه . . . كان يعتقد أن أى تداخل بينه وبين هذه الغواية وتلك المقدسات أو قل هذا المرض . . قد يفسد عليه حياته الزوجية كلها ويعكر عليه صفوه ، ومن ثم كانت نظرته إلى الزواج نظرة الوجل النافر المستريب . .

وكان يزيد فى تشاؤمه وهواجسه . . ما كان يسمع من شكاوى مريرة عنيفة من غيره من المتزوجين . . وما كان يشاهد من مآسٍ تمثل على مسرح الحياة الزوجية كل يوم . . . دون أن يستطيع لها تفسيراً أو تعليلا . . فيرى مثلا زوجين .. توافرت لها جميع الأسباب والعوامل التى تجعل منهما زوجين سعيدين . . جمع مثلا بينهما الصحة والجمال والخلق الكريم . .

والعائلة الكريمة الأصل . . وربما الغنى . . والتقارب العقلي والثقافي .. وو .. ومع هذا تراهما على طرفي نقيض .. يعيشان في بيت على ضدين منضم ! ! . . وقد تعددت لديه الأسباب والشواهد.. وكلما خلا بصديق حميم له ووقف على عميق أخباره اقتنع أن الزواج مصيبة بل كارثة بل مأساة ! ! . . بيد أنه يعود فيقول « ولكنه شر لابد منه » .

يقارع نفسه . . ويقول : إذن ما لذة تعبي طوال أيام شبابي هذه . . ولماذا تعبت ؟ ! . . ولمن سأخلف هذه الثروة التي جمعت ؟ وغداً عند ما أصبح عجوزاً هرماً . . أتلفت حولي . . فلا أجد ولداً معيناً . . ولا بنتا لتحدب علي . . وإذا مرضت لا يبالي بمرضي أحد سوى خادم يتمنى الساعة التي أقضي فيها . أفتش عن طريق فلا أجد من يهديني السبيل . . لن يعطف على العطف الأكيد الصحيح إلا من كان من دمي ولحمي ولن يواسيني في محنتي أو يشاركني في مصابي إلا من كانت وشائج القربى تصله بي . . ولن يفرح لفرحي . . . أو يغضب لغضبي . . . ويشاطرني أفراحي وأحزاني مشاطرة حقيقية . . إلا أم أو زوجة أو ابن . . دعك عن مشاطرة المجاملات . . ومشاركة العواطف الظاهرية التي ليست من القوة بحيث تجعل الألم واحداً . . والسرور واحداً . . المصيبة واحدة . . والروابط واحدة . .

أخذ صاحبنا يقارن بين حالته الراهنة . . وما هو فيه من هدوء بال . . وما يصادفه من توزع وعدم نظام نتيجة لتصرفات الخدم المزعجين الذين يعكرون الصفو ويجعلون الحياة فى اضطراب وبين ما قد يتسبب فيه من مشاكل فى حالة زواجه فوجد أن مشاكل الزواج قد تعادل هذه الحالة المزعجة التى هو فيها . . أو تفوقها قليلا . . أو تنقص . . قليلا . . ولكنه فكر ودبر . . ومال بعض الميل إلى ناحية التفاؤل . . وقال فى نفسه ليس من الحتم على كل متزوج أن يكون بائسا فاشلا . . فهنالك بعض الأزواج السعداء . . وهذه السعادة تتراوح نسبتها صعوداً وهبوطا تبعاً لعدة اعتبارات . . فإذا استطاع الحصيف العاقل أن يوفق بين هذه الاعتبارات ويوازن بينها . . ظفر ببعض السعادة . . أو بشىء كثير منها . . وظن فى نفسه الكفاءة . . والقدرة على أن يوفق بين بعض هذه الاعتبارات ويوازن بينها .

وعندما وصل إلى هذا القرار بينه وبين نفسه . . عزم على أن يتزوج . .

وصمم بينه وبين نفسه أيضا على أن يراود بالحلال أول من تعترض سبيله من كرام الفتيات . . بشرط أن تملأ عينيه وقلبه وأن يكون بينهما تجاوب روحى وذهنى لاسيما وقد شارف قمة الشباب ، وأصبح الوقت لديه قصيراً للبحث والتعب والاستقصاء

ويشاء القدر أن يلعب لعبته . . فينتقل صاحبنا إلى هذا الحى بالذات الذى تقطن فيه الفتاة المتقدمة الذكر . . ولا بد أن يكون سأل . . أو رأى . . أو راقب فى كل يوم . . فتيات الحى حين يخرجن إما إلى المدرسة أو إلى السوق أو إلى النزهة . .

ولما كانت تلك الفتاة الكريمة التى تملأ العين والخاطر هى المميزة والمفضلة . . فقد كانت النظرة الأولى إلى هيكلها . . وإلى وجهها الآسر فى غفلة منها . . هى النظرة التى قفز لها قلب فتانا . مما ألهب الشوق لأن يتم حلقة بحثه واستقصاءاته عن هذه الفتاة . . فكانت التقارير كلها مبشرة بالخير . . تشير إلى أنها تستحق اهتمامه . . وتركيز أفكاره نحوها .

. . .

بعث اليهامع أحدى قريباته يستشيرها الرأى فى رباط أبدى . فأرجعت الأمر إلى أهلها . . غير مبدية اعتراضاً على وجاهة وحيثية الطالب . . فظن صاحبنا أن ذلك عائد إلى ما فطرت عليه الفتاة العفيفة من تمنع ودلال وترفع .

أخذ صاحبنا يشغل نفسه بكتابة مذكرات لنفسه . . ظانا أنها غدت فى قبضته . . وأنها إن عاجلا أو آجلا ستصبح ملك يمينه . . ودون فى المذكرات أروع آى الغزل وأشهى أمانيه . وأعذب أحلامه . . فى عش السعادة الذى سيبنيه . ، وفى الحياة

الزوجية الموفقة التي لابد أصبحت بين يديه . . وفي التوفيق الذي صادفه . . والحظ الباهر الذي كان من نصيبه وأخذ يتغزل في مذكراته بشريكة حياته المستقبلة . . وبالأخلاق . والمزايا . والشمائل . . والجمال . . والدل . . والجاذبية . . والسحر . . والعذوبة . . والذكاء . وكل مايبهر العقل ويسلب الرشد والحجى . وأطلق العنان لقلمه . . وشغل في أمسياته بتصوير أحلامه وآماله ، وغدا كأنه دنف معذب . . ينتظر اللحظة التي فيها يصل إلى مرتبة السعداء .

. . .

وكأن هذه الحالة من الهيام الوهمي التي وصل اليها صاحبنا قد بلغت مسامع فتاتنا . . بطريق من الطرق . . لاندري كيف وكأنما تعمد — متغافلا — أن تصل اليها هذه الأنباء ليدخل السرور على نفسها . وينتظر التجارب المطلوبة . وربما سرت لذلك أول الأمر بينها وبين نفسها . . وربما تاهت نفسها . . وشمخت . . وتعالت . . فخيل لها الوهم . . أنها خليقة بأكثر من هذا . . بل خليقة بأن تقترن بأعظم من صاحبنا جاهاً . . وأوفر ثراء . . وأعلى مرتبة . . وأكثر علما . . وبينما كان السطر الواحد أو الأنشودة الواحدة . . أو المقال الواحد . . كافياً لدى ربات الفهم والعلم والثقافة لأن يجعل إحداهما خاضعة كل الخضوع

مدلهة كل التدله . . واقعة فى حبائل هذا الغزل الرفيع . . مترامية على قدميه . . بينما نرى فتاتنا التى لاهى بالمتعلمة ولا بالجاهلة . . تضرب كل هذه الاعتبارات عرض الحائط . . ولا تقدر . . بل ربما لا تفهم ماقيل فى حقها . . ولا تدرك المغزى البعيد الذى يرمى وراءه . . ويهدف اليه أصحاب القلم العبقرى . . والعقل الواسع . . والإدراك البعيد . . فيُفهم لدى أمثال فتاتنا التى لاهى بالمتعلمة ولا بالجاهلة على أنه هذيان . وثرثرة وربما فضول غير مرغوب فيه .

. . .

ويدرس صاحبنا جميع الأوضاع والتطورات عن كثب . ويبلغ مسامعه — ولسنا ندرى عن أى سبيل — الاشمئزاز أو النفور . . أو قل عدم التقدير أو عدم الفهم لما يكتب . . وما يشغل لياليه . وأوقاته . . فى التغنى . بمحاسنها . . ومزاياها وفى وصف أسعد حياة . وأجمل مستقبل هانىء بهيج . . فيكاد صاحبنا يصعق . يكاد يجد فى ذلك نهايته . فيختل النغم . وتفقد الأغنية موسيقاها العذبة . وتصبح لحنا رتيبا . . ذاو تيرة واحدة لا انسجام فى مقطوعاتها .

يسقط الفنان فى يده . وتدور الدنيا فى عينيه . . إذ يفقد التجاوب الذى كان ينشده منذ سنين وسنين . والذى كان يحلم

به . ويجد فيه لذة الحياة والعمر . ويؤكد فى قرارة نفسه . أن الحياة لن تصفو له فيما لو نفذ ما صمم عليه . فإن ألحانه وأشعاره ومقطوعاته هى من دمه وقلبه . وهى عزيزة على نفسه كروحه ولن تستطيع فتاة أن تصرفه عنها . بل الفتاة هى التى تستطيع أن تثيرها وتوقظها . وتبدعها . وتخلق منها الروعة والمثال الحى . إنها الفتاه الأثيرة عنده المفضلة على كل من سواها من البشر ! .

وعاد إلى نفسه . يوازن بينها وبين هذه الفتاة التى تلعب بالنار ! ! . .

إنه يفضلها . علما . وذكاء . وثروة . وحسباً . ونسبا . وكل ما يمكن أن يجعل وجها للمقارنة . فعلام هذ التعنت ؟ ! . إذا كان الجهل . فقد يكون هناك بعض مجال لغفرانه . وأما إذا كان الكبرياء الأجوف . أو إذا كان ذنبه أنه أحب . فإن نفسه لن تهون عليه . إنه لن يستذل . إنه امرؤ مزهو بمواهبه . وبفضائله . وبقدره الرفيع .. ومن ذا يستطيع أن يجحد قدر الفنان والكاتب والشاعر .. والعالم ؟ ! لا يجحد قدره إلا كل من سلب فضل التميز والعقل . ! .

وعاد صاحبنا يقرع نفسه ويلومها على أنه وهب قلبه بيسر . وسهولة . لمن لا يستحق . عاد إلى أشعاره وكتاباته . يراجعها . ويقرأها مثنى وثلاث ورباع . فيجد فيها نوعا من الإلهام . .

نوعا من الوحى الرفيع . كانت هذه الفتاة الباعث عليه .. وهى الخالقة له . ومع اشمئزازه ونفوره من صاحبته لهذه الصدمة العاطفية العنيفة التى بلى بها . كان حريصا طول سنى شبابه على أن لا يفرط فى قلبه قط . لعدم ثقته بحواء ! ؟ .

واليوم إذ يقدم غير هياب ولا وجل على ما من شأنه أن يهيء له حياة الاستقرار والرغد ، كما توهم ، يصدم بعدم التجاوب والاستخفاف ! . ذلك كبير على الفنانين . الذين يقدرون الحياة بموازين غير الموازين العادية ! .

عز عليه أن يقطع إربا إربا هذه المقطوعات التى صاغها من دمه وزفراته . فلفها جميعا وبعث بها إلى صاحبتها .. علها تدرك أن كتاباته هذه ليست هزلا ولا عبثا . واضعا فى رأسه خطة مرسومة محبوكة ! !

ووضع أعصابه بعد ذلك فى ثلاجه ..

. . .

ومما لا شك فيه أن فتاتنا . . التى لاهى بالمتعلمة ولا هى بالجاهلة . . تعبت فى حل كثير من الرموز والطلاسم . . والألغاز .. التى يهدف إليها الفنان فى كتاباته الرفيعة .. ولا شك أنها ارتاحت إلى أنها أصبحت فى عالم الأدب والفن شيئاً مذكوراً ولا شك أن فضولها دفعها إلى أن تتأمل وتفكر كثيرا

فى كل ما قيل عنها . . عما يرفعها إلى مصاف الملائكة أحيانا . . ويربطها بعجلة فينوس مرة . . وتتبين فضائل ومميزات مرة . . فى خلقها وأخلاقها ما كانت لتحلم قط أن تكتشفها هى أو غيرها . . فأعجبت ورأت لونا غريبا عن إدراكها . . تبينت أن هؤلاء الفنانين ليسوا كسائر البشر . فهم يتذوقون الجمال على غير ما يتذوقه البشر . . ويفهمون معانيه فهما غير عادى . . وإذن فهم يعاملون المرأة معاملة مغايرة لما يعاملها به الناس العاديون . . وإذن فالحياة بين أيديهم أجمل حياة يمكن أن تعيشها امرأة فى الوجود . . وإذن كم هى الآن نادمة على إعراضها ونفورها من هذا الفنان الحزين . . البائس . . الذى كان يتعذب من أجلها وهى لا تدرى عن ذلك شيئاً . . كاد قلبها يطير . . ولولا أن الوقت كان آخر النهار وأول الليل لدلفت إلى الشارع أو السوق تتلمس إليه الأسباب لعلها تجده فى طريقها فتنظر إليه نظرة الرضى لا النفور . . نظرة الود لا التحفظ !

. . .

وباتت على أحر من الجمر . .

وفى كل يوم . . تتلمس الأسباب . . لتراه . . وتسأل عنه فلا تجد من يعثر له على خبر ! . .

إن قلبه وقد نفر منها الآن ، وعاودته كبرياء الفن . .

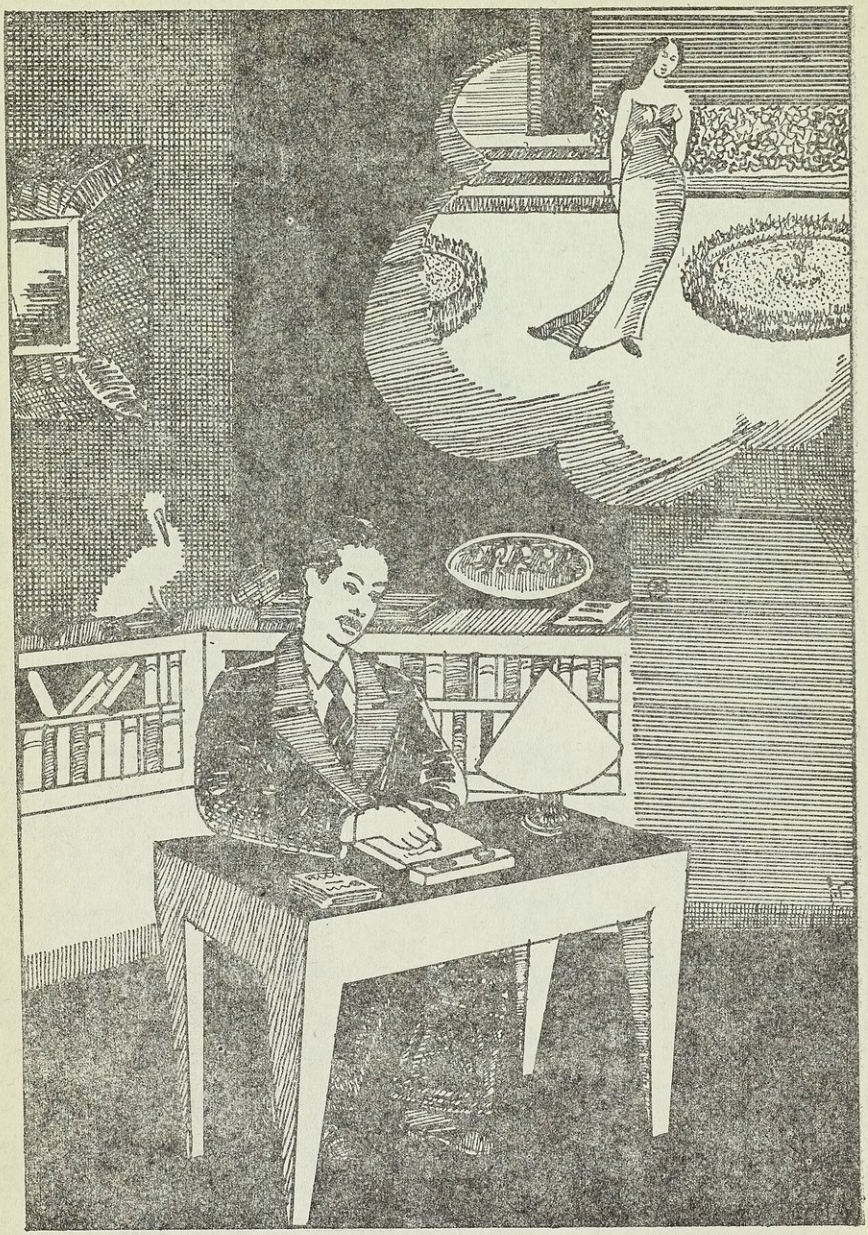

أبى أن يخضع أى خضوع.. بل أبى المغفرة.. إنه ذهب بعيدا.. عن ذلك الحى.. واهباً نفسه لفنه.. ولكتبه المبعثرة فى كل غرفة.. مؤثراً أن يبقى تحت رحمة الطاهى والخادم، مصراً على أن لا يهب بعد الآن قلبه رخصياً مبتذلا!.. عاقدا العزم على أن لا يخضع لنظرات بلهاء جاهلة لخفايا القلوب الواعية.. عاد إلى كتابه وقرطاسه ومحبرته الحبيبة العزيزة المقدسة الطيعة..

وبقيت الفتاة طيلة عمرها تتحسر وتعض بنان الندم.. كيف أجفلت عندما تقدم إليها الشاب المرموق.. خاضعا وهى التى كانت كل أيامها ترتقب بفارغ صبر.. ذلك الزوج الذى يحنو عليها ويرعاها ويحميها.. وتفخر به وتعتز.. فإذا هى تشمخ.. وتأنف وتتردد..

وكان نفوره سبباً فى حزنها الدائم.. وشحوبها.. وتسطير جبهتها وخديها بسطور الزمن الذى لا يرحم.. عندما يجد ويهجم منذراً قائلا: يمر الحظ بالمرء مرا عابرا كالطيف.. فإذا ترصده وأمسك به.. وتشبث به.. علق بالمرء وسعد.. وإذا.. وما بالى به. أفلت منه وانتقل إلى غيره.

وتزداد ألماً وحسرة عندما تقارن بينه وبين من يعرض لها من الرجال فلا تجد له مثيلا.. فإن وجدت الجسم الناضج.

لم تجد الفكر الناضج الذى يزينه . . أو المطامح الواسعة . . أو الأدب الكامل . . والاعتزاز . . والخلق الدمث الرضى . . وفحولة الرجولة الحية والشجاعة الأدبية المقدامة . . التى تأسر لب المرأة . . وتجعلها مقيدة بأمثال هؤلاء الرجال النادرين .

واحسرتاه له كيف ودع آماله الغوالى العذاب . . كيف كان يعتزم أن يجعلها زهرة البلد ، وكيف كان يريد أن يضع تاجاً على رأسه ودرتها على مفرقه . . وكيف كان سيجعلها تزهو على جميع أترابها به . . وكيف كان سيهيء لها جميع سبل الراحة والترف . وكيف كان سيدللها . . ليجعلها أهنأ وأسعد زوجة طلق هذه الآمانى . . وعاد يحتضن . . عاد يتزوج كتاباته . . فهى خير زوجة . . وأوفى خليل وأبقى رفيق وصديق على الدهر . . .

وأما هى . . فواحسرتا لها كذلك كيف تذوى . . وتذوب وتملأ الدمع مآقيها ما دام يغيب عنها ولن تجده . . فقد أفلتت الفرصة من يدها ولن تعود .

واحسرتاه لها حين تزور صويحباتها اللواتى يسعدهن الحظ بالعثور على زوج . . أو يسعى العزاب قاصدين الزواج منهن . . فتبارك لهن وفى نفسها غصة وحسرة لايطفئهما إلا التراب ولكنه سيكون وفياً لها مقدراً ما دام يعيش لأنها أيقظت حاسته الأدبية . . وملكاته . . فأبدع ووهب نفسه للأدب والفن .

حبّ ديبلوماسى

(فيهون عند هذه الحرب نزال الأبطال
فى الميدان وقراع الظبى وصليل الرماح)

هو . . . ديبلوماسى . . مجاهد . . وتسألنى كيف يكون دبلوماسياً وكيف يكون مجاهداً فأقول :

جاهد . . جاهد حين كان الجهاد فرضاً على كل مواطن فى سبيل تحرير بلاده . . وطرد العدو المغير ولم يأل جهداً كبقية الشباب المثقف الواعى فى كل مناسبة ليقف فى حقل الجهاد بلسانه ، فى أقطار الدنيا مدافعاً عن قضية بلاده مدحضاً

أباطيل وأراجيف العدو من كل منبر دولى فى كل أرض اقتضاه الواجب أن يقصدها أو يرحل إليها . . ليشرح قضية بلاده إلى العالم الحر . . فكان أحياناً يرى صدى فى البلاد الواقعة تحت نفس الظروف . . والتى تقاسى من نفس الاضطهاد والذل والعنت والطغيان وأحيانا يجد آذاناً صماء فى تلك البلاد التى ترتع فى بحبوحة النعيم المقيم والتى ترى أن استعباد الشعوب الضعيفة أمر غير حرام وغير ذى شأن حتى فى هذا القرن الذى ينادى بحرية الرأى وحرية الشعوب وحرية التعبير . . وحقوق الإنسان . .

إنه رجل وسط ، لا هو بالذكى المفرط الذكاء . . ولا هو بالغبى . . ففكره يعمل ضمن دائرة روتين الحياة الرتيبة التى يعيش فيها الناس العاديون دون أن يجنحوا إلى تخطى هذه الحدود تحقيقاً لمطامع أو شذوذاً على مألوف اتباعاً لفلسفة خاصة خشية أن يفقدوا أعصابهم أو مراكزهم فيربكهم البحث عن مستقبل آخر أو اتجاه غير مضمون العواقب فيختل توازنهم . . فيفقدهم هذا الخوف آمالا جساما لو سعوا وراءها لأمكنهم تحقيقها أو يقعدهم عن طلاب المجد فى شتى سبل الحياة الواسعة الآفاق المتعددة الألوان . . فيبيتون من خوف السعى فى خوف .

والدبلوماسى الجديد لا يحسب عادة حساباً لما يقال عنه فى بلاده وحدها بل يهتم كثيراً بما يقال عنه فى الدولة التى يمثل بلاده فيها . . ولذا كان يعنى بمراعاة بعض تقاليدها وعدم التعرض لعادات أهلها ومعتقداتهم غير مظهر شعوره الحقيقى أو رأيه الصحيح فيها جميعها . . فمن حقه والحالة هذه أن يكون متزمتا لا يظهر إلا فى الحفلات العامة أو الخاصة . ولا يختلط إلا بطبقة معينة من الناس . إلا أنه إذا اشتبك فى حديث يقتضى منه الدفاع عن وجهة نظر بلاده فى مجلس خاص أو عام كان عليه أن يكون جريئا دون إيذاء . . وفى هذه المواقف المحرجة تبين براعة الدبلوماسى ولباقته ، فقوة حجته ومنطقه يكسبان له كثيراً من الأنصار والمؤيدين

والمطلوب فى حالات كهذه سعة اطلاع . ومناولة الشواهد المتعددة المبنية على دراسات تاريخية واجتماعية . . والمطلوب فى حالات كهذه أيضاً أن يكون المرء جديد الاطلاع على تطورات العالم الحديثة وتياراته وأن يبنى من هذه التطورات النظريات المفيدة مجداً لبلده . . ومن العسير جداً على أكثر الناس أن يعرضوا وجهات نظرهم دون المساس بالغير . . أو بعبارة أصح من العسير على أكثرهم أن يناقشوا دون مهاجمة تؤدى إلى فقد التأييد والعطف . . وكثيرا ما يتورط

الناس فى نقاشهم . . فينقلب الحديث الودى إلى جدال عنيف يأخذ سبيله إلى الحدة والصياح . ويكون الأقوى صوتا هو الأقوى سيطرة فى المجلس . . فينفرط العقد وينسحب كل وفى نفسه على صاحبه شىء بل أشياء . وأعظم من هذا وأضل سبيلا أن يظهر الإنسان محاسن وجهة نظره أو دفاعه عن شىء معين بانتقاده انتقاداً مريرا وتسفيه أشياء معينة أخرى كتبيان مزايا بلده وتقاليده بالمقارنة مع العادات والتقاليد المألوفة فى البلد الوافد إليها . . وازدرائه لهذه العادات والتقاليد والحط منها . . فهذا الاستهزاء السافر بالغير يفقد مزية المنطق ووجاهة الحجة وعذوبة الحديث . . وإشراق الفكرة . . فيختل المعنى الذى يجتمع عنده الأصدقاء من بلاد وجنسيات مختلفة لتبادل وجهات النظر . . ومقارعة الفكر . . والتسلية بقضاء الوقت فيما يعود بالنفع والفائدة . .

* * *

وقد يقول القارىء : ما دخل هذا الكلام فى القصة ؟ فأقول أن هذا لا بد من تفصيله . . فالكاتب لا يستطيع إلا أن يتطرق لموضوعات أخرى متفرعة هى فى صميم مجتمعنا . . وعندما تهاجمه فكرة قد تعود بأى نفع على المجتمع لا يدعها تفلت من يده . . بل يأخذها بسياق حديثه . .

والآن . . هـذا الديبلوماسى الذى لا هو بالذكى ولا بالغبى . . قدر له أن يمثل بلده . . فى بلد يكاد يكون شديد المحافظة على التقاليد . . ولم يكن هذا المجد غريباً عليه فقد عاش فى بلاد . . ومناطق متعددة من أنحـاء العالم . . عاش فى بلاد فيها منتهى ألوان الحرية . . لدرجة التهتك المخجل الذى تشمئز منه النفس الكبيرة الوقور . . وعاش فى بلاد اختلط فيها الجد بالهزل والوقار بالعبث . . كما عاش فى بلاد اعتـــبرت القيم الخلقية القيم الدقيقة المقاييس والأوزان . . فكان التحفظ هو الطابع الغالب . . والسمة البارزة . . وفى البلاد المتحفظة يكاد ظل المرأة يكون معدوما من الحياة الاجتماعية . . بل تكاد تكون معدومة الذكر فى أى نشاط ذى أثر فعال فى تكوين شخصية الأمة . . وليس ذلك لأنه ليس بمقدورها أن تكون ذلك الأثر . . وتخط فيه خطوطاً واضحة عريضة . . فالمرأة أينما كانت وفى أية بيئة وضعت لا بد أن تلعب دورها على مسرح الحياة . فإذا كانت جاهلة غبية مالت إلى الحسد والإيقاع والشر والتبرج والإسراف والتبذير والتدمير . . لتخفى هذا العجز الذى لا يتلاءم وطبيعة مطامحها . . فتدور مع من حولها فى دوامة طابعها الثرثرة والإفساد والقيل والقال . . والزيارات . . التى ليس من ورائها إلا التقليد والتزيين . .

والتشبث بالإشاعات التى تسرى كالنار فى الهشيم .. وتخفى وراءها الحقد والكراهية والبغضاء وحب الانتقام وإن كانت متعلمة ذكية .. ذات تربية رفيعة .. أخذت مكانها اللائق .. وتربعت على عرش الأفكار والقلوب .. وأصبحت لا تعامل على أنها كمية مهملة تافهة .. بل على أنها ذات رأى وفضل .. على أنها عامل هام من عوامل المجتمع ، الإصلاح رائده ، والمنفعة العامة همه وشاغله وتربية الأجيال تربية رفيعة مطمحة وقبلته . عندها فقط تكون زينة الدنيا ، وملء عينى الرجل وموضع تقدير الأجيال واحترامها ومناط الأمل والرجاء للوطن والشعوب ! . والويل لأمة تكون الأم فيها جاهلة ! . لا تدرى من شئون الحياة ولا الدنيا شيئاً .

* * *

وفى ذلك البلد .. حيث كانت الأم فيها مثلما ذكرنا .. عثر صاحبنا على فتاة اعتقد أنها ضالته المنشودة .. فلا بد له .. كديبلوماسى من شريكة فى حفلاته التى يقيمها .. أو المآدب التى يدعى إليها .. ولا بد أن تشاركه الرأى .. والأمل .. والمستقبل .. وتزيل متاعبه .. وتخفف عن كاهله أعباء الحياة الثقيلة فى بلد خلا من كل وسيلة من وسائل التسلية ..

لقد صادفها عرضاً فى حفلة من الحفلات .. فرق لها قلبه

وكان كلما أجال فيها النظر والتأمل . . ازداد نهماً . وتشوق إليها . . والرجل فى هذه المرحلة يطرأ عليه تحول عجيب فى حياته . . إن نهمه وشوقه لا يشبعهما إلا الامتلاك . . ومادام قد بلغ سنا ينبغى عندها على المرء أن لا يتأخر عن الإسراع فى البت فى مصيره ومستقبله . . فقد أسرع فى اتصالاته لبلوغ القصد المنشود . . وأخذ فى استقصاءاته وأبحاثه . . فعلم أن فى البلد من يقوم مقام ولى أمرها . . فاتصل به صاحبنا . . وفاتحه بالأمر . . طالباً إليه أن يسعى لإنجاز المهمة بالشكل المناسب اللائق . .

ولكن لبعض الفتيات حياة خاصة — أو ناحية من النواحى الضعيفة — إذا لم تتغلب عليها وتقهرها ، أو على الأقل إذا لم تتخل عن عاطفتها فى الساعات الحاسمة من حياتها فإن الفرصة ليست مستعدة للانتظار والتربع على الأبواب .. أو ربما للعودة عندما تشيح بوجهها نافرة مشمئزة ساخطة ! . .

وكانت لهذه الفتاة حياة خاصة . . كانت متعلقة بفتى . . نستطيع أن نجزم أنه على تفاهة تامة بكل ما تتحمل هذه الكلمة من معنى .. فلا يدعمه منصب ولا مال ولا أصل ولا شخصية .. وإنما يعيش بكسب بسيط . . كما يعيش من هم دون العاديين . ، وإذا أردنا الإنصاف قلنا أنه كان شديد التعلق بها . . وربما

بنى آماله على أساس ضم دخلها إلى دخله ليكون لهما شيء أو بعض شيء.

كان من يقوم مقام ولى أمر الفتاة نبيلا فى جوابه على صاحبنا الديبلوماسى حين قال له : ولكن هذه الفتاة من عائلة بسيطة . . الأب ذو صنعة متواضعة جداً . . ولكنها عزيزة النفس وحائزة على بعض الذكاء والعلم . . ولست أدرى إذا كانت تصلح زوجة لديبلوماسى مثلك أو لا . . . ومع هذا خذ الوقت الكافى للتفكير الجدى العميق فى هذا الموضوع وأخبرنى بقرارك الأخير بعد أسبوع . .

لم يشأ أن يأخذ مثل هذه المهلة . . ولكنه وجد من الرشد الانتظار . . مع أنه عالم سلفاً بقراره . . وبعد أسبوع استدعى ولى أمرها . . وأخبره بعزمه الأخير . . وقراره القطعى . .

فى خلال فتره الأسبوع كان هذا الولى قد لمح بالأمر إلى الفتاة ومن حولها وعسير على المرأة فى حالات كثيرة أن تكتم أمراً . أو تحفظ سرا . حتى ولو كان يتعلق به مصيرها ومستقبلها فمن طبعها الزهو . والمباهاة . وخاصة فيما يظهرها مظهر المرغوب فيها . المتهافت عليها . فلشد ماتحب أن يتنافس الرجال فى طلب رضاها وودها . . وأن يتطاحنوا ويشتبكوا فى نزال . . حتى إذا كان المجلى والفارس المغوار والرجل المميز بين المتنافسين .

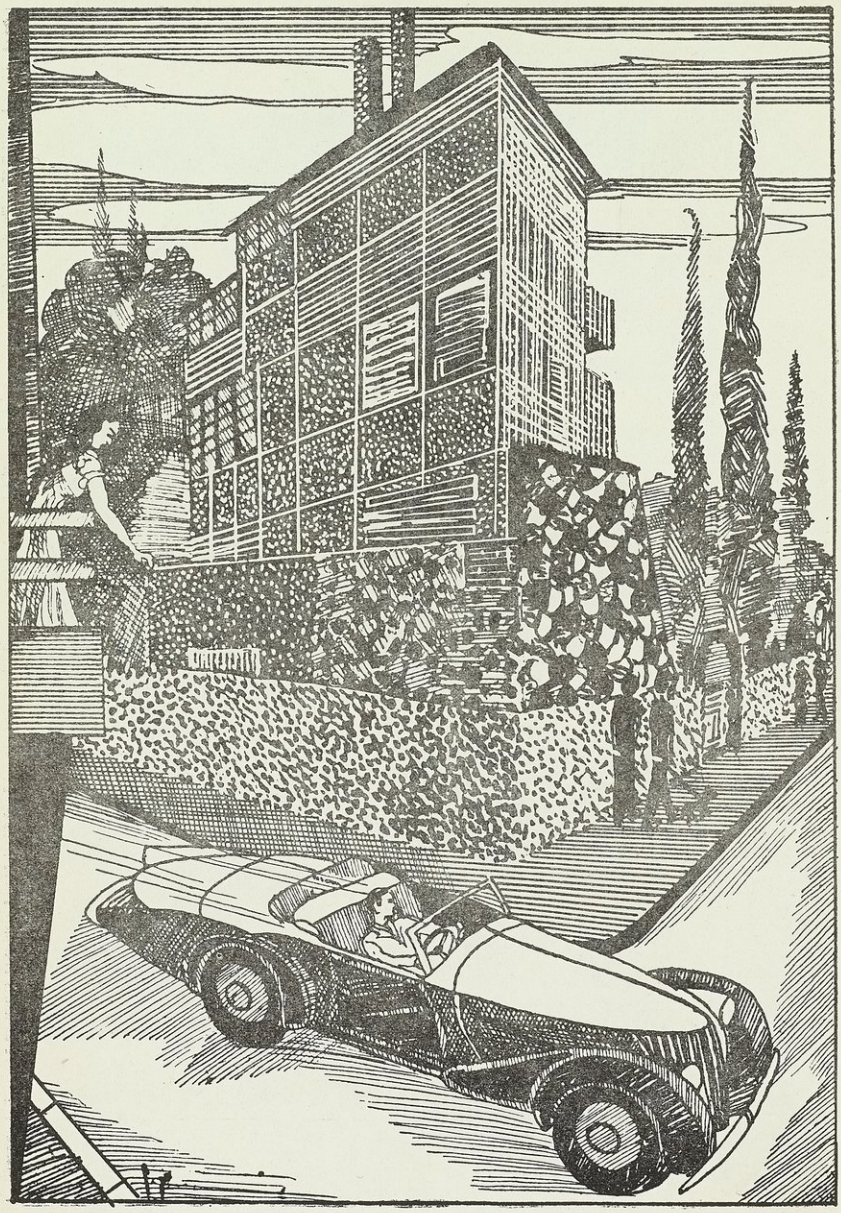

كانت هى له .. ورضيت بعبوديتها له فى الظاهر .. حتى إذا ماتملكت زمام أمره لم تأل جهداً فى محاولة استعباده وقهره . فيهون عند هذه الحرب نزال الأبطال فى الميدان . وقراع الظبى . وصليل الرماح . ولا شك أن هذا الأمر ذاع بين أترابها ولا شك أن الخبر بلغ ذلك الفتى المتعلق بها . . فما كان منه إلا أن اتخذ خطة المدافع عنها . . المنافح عن حقوقها . . المشفق عليها أن تربط مصيرها . بمصير . . من دعاه لاجئاً شريدا . وأحب أن يرفع منزلته بعض الشىء فدعاه لاجئاً سياسياً . . وما قصد من وراء ذلك إلا بلبلة أفكارها . . وسد مسالك التفكير السليم أمامها وشن حرب أعصاب عليها ، وكان يشعرها بأنه أصبح أقرب إلى النافر منه إلى الراغب فى التعلق بها .

والفتاة مهما بلغت من رجاحة العقل والإتزان . ضعيفة فى تفكيرها . سقيمة فى أحكامها ولذلك وازنت — فيما يبدو — بين مستقبل بسيط مضمون مع فتاها . وبين مستقبل غامض غير معروف ، كما صوره لها هو ، فكان جوابها حين فوتحت فى الموضوع بشكل جدى : الرفض .

ولم يكن لولى أمرها أن يضغط عليها ، أو يسهب فى الإلحاح فهو لا يعدو أن يكون الناصح المرشد ، أو واسطة الخير الموفق فى الحلال ، وهو طيب إلى درجة قصوى ، حسن النية بشكل

فائق وكثيرا مالا تجدى هذه الطيبة وتلك النية الحسنة فى أمر دقيق معقد كهذا فهو صريح سريع البت . يأتى الأمور من أقرب طرقها . دون مفاوضات أو جدل ، ومع أنه قوى الحجة إلا أنه يرى ألا حاجة إلى الأناة والجدل الطويل للإقناع فيما يعود على المرء بمصالحه ومنافعه ، فهو يعتقد أن المرء أعرف بهذا الصالح وتلك المنفعة من غيره ، وهو إن علم أو لم يعلم بعلاقة الفتاة هذه كان ينبغى عليه فى الحالين أن يستعمل جميع وسائله الحكيمة لاقناعها ، ومع هذا فمن يدرى ؟ كثيرا ما يكون الوسيط ملوما ، حتى فى الحالات التى يكون التوفيق فيها غالباً بين الزوجين ؟ ! المهم أن الفتاة رفضت وشمخت ، فما كان من صاحبنا الديبلوماسى ، الذى لم يكن يتوقع مثل هذا الرفض ، إلا أن عاد اليه كبرياؤه ، وأنفته ، وقابل هذا الرفض بزراية تامة ، وعاد يقارن بينه وبينها ، فوجد أنه يفضلها بكثير ، وجد أن مستقبله القريب . كفيل بأن يجعله وزيرا مفوضاً ممثلا لبلاده فى عاصمة من عواصم العالم الشرقى أو الغربى ، وأنه بحاجة إلى أن تكون بجانبه زوجة لها من صفات الجمال والعلم واللباقة مايفوق بكثير ماعنده هو . فكيف وهو فى نشوة هيامه بها ، يتواضع لطلب يدها ، فتشمخ وترفض .

وعاد يقول لنفسه : لعلها غير قادرة على أن تمثل دور زوجة الديبلوماسى ، وأن تقوم بأعباء الديبلوماسية والتزاماتها

إذن لقد عرفت قدرها ، فما أرادت أن تغامر أو تتورط فى مثل هذا المجال الواسع الآفاق ، العريض التكاليف . والويل للمرأة التى يضعها سوء طالعها فى موقف تنقلب عنده جميع المقاييس فتنقلب النظرة اليها من تمجيد إلى استهزاء ، ومن تقدير وحمد ، إلى نفور وامتعاض ، وتتبدل عين الرضا الكليلة عن كل عيب ، إلى عين الغضب التى لا تبصر إلا المثالب ، ولا تفتش إلا عن الرذائل والنقائص والعيوب . وعندما زالت عن عينيه غشاوة الهوى والود الصارم الذى يحطم جميع ما يعترضه من صعاب وعقبات فى سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة تدافعت أمام ناظريه جميع الصور التى تقيم حوله الصعاب . وتربطه بشبكة من العقبات والأوهام المضللة لتبعد عنه تلك الصورة الأليفة ، وتقيم بدلها صورة كريهة منفرة ، وهذا هو التعويض الذى يفرضه المرء على نفسه ليضمد جرح كبريائه وعزته ، ويرد لنفسه اعتبارها .

. . .

لم يكن الوقت الذى ينبغى فيه أن يدرك أن الفرصة أفلتت طويلا ، ولم تستغرق فى سنة الوهم والخيال استغراقاً مديدا ، فبعد مدة وجيزة ، وجيزة ، تكشفت لها الحقيقة ، ووجدت أنها أخطأت خطأ كبيرا لا تقدم على مثله إلا حمقاء بلهاء واغتنمت فرصة

أول حفلة ، التقت به فيها لتظهر له الود وتقبل عليه فى حنان ، فما كان منه إلا أن أعرض عنها وأمعن فى الإعراض ، فأمعنت فى الاقبال والتودد ، وظل معرضاً ، كاشح الوجه ، لا يلقى اليها بالا وحتى يزيد فى قهرها وتحطيمها ، اشترى أفخم سيارة يمكن أن تكون ملكا لفرد وأخذ يمر فى عصر كل يوم من أمام بيتها ، فى تؤدة وعدم اكتراث ، لا ينظر قط حتى إلى النافذة التى كانت تطل منها كل يوم فى ساعة معينة .

واحسرتاه ، لقد أصبحت أضحوكة بين أترابها . اللواتى يقلن : هذه أضاعت عريساً رجلا ، تمسكا منها بإنسان يعيش على هامش الحياة ، وبقيت بجوار هذا الإنسان العاجز مقهورة ، مسلوبة العزم والارادة ، مغلوبة على أمرها ، تعيش على بقايا حب متهدم متحطم ، سلبها السعادة والرغد والبحبوحة والعز والمجد ...

أقرب الطرق إلى جهنم

هذا هنس وأخوه فرتز . يقدمان خصيصا . من ألمانيا . ليبحثا عن أجمل نقطة فى شاطىء بحيرة طبريا . البحيرة التى سار عليها المسيح رويداً . وفتنت المتنبى . وسكن عند أميرها بدر ابن عمار زمناً تألقت فى خلال ذلك شاعريته . وأبدع . لأنها بحيرة الحب والجمال والسحر والشعر . وشادا فى تلك النقطة التى اختاراها أجمل وأفخم وأضخم فندق عرف فى تلك البلاد . وشادا كذلك مسبحاً على أحدث طراز . وصالة للموسيقى . ومقهى . ومقصفاً ، فاعتبرت تلك القطعة من البحيرة العذبة كأنها قطعة من ألمانيا ، فأخذت الطبقات الراقية المترفة تؤم هذا الفندق وملحقاته من مختلف أنحاء البلاد .

بعد سنة من إنشاء الفندق ، أخذ أكبرهما هنس إجازة ، وذهب إلى سويسرا . يدرس فيها متخصصاً فى إدارة الفنادق وليستمتع بعض الوقت من عناء الإنشاء ومتاعب المشروع . قضى ستة شهور فى تلك المدرسة ، تعرف خلالها بزميلة ألمانية ، وبعد أن توثقت بينهما العلاقة ، قررا الاقتران ، ورضيت بالرحيل معه إلى مقر عمله .

لم يسكنا بالفندق . بل اتخذا مسكنا لهما أجمل فيلا فى طبريا ، تحيط بها الأشجار الباسقة والرياحين الفواحة ، فى أعلى ربوة فى البلدة ، مشرفة على البحيرة والمشروع ، منسقة خير تنسيق غرب حديث ، فيها كل وسائل الراحة التى أنشأها الفكر الأوربى ولا يعلم أهل تلك البلدة إلا أن هذين الزوجين هما أسعد الأزواج وأهنأهم ، وأثراهم ، وأنهما متكافئان كل التكافؤ ، فالصحة والشباب والجمال والعلم والرجاحة ، كل هذه المميزات تنطبق على كليهما ، وكل ما يعلمه الناس أن الرجل مع أخيه منكبان على العمل فى أوقات العمل ، مكرسان كل جهدهما لإنجاح مشروعهما ، الذى أخذ يدر عليهما أرباحاً خيالية . وكل مايعلمه الناس أن هذين الزوجين يتريضان والأخ الصغير فى عصر كل يوم ، ويقتلان الوقت بالتسلية بلعب التنس ، والاستمتاع بعدها بالسباحة ، فاكتسبت أجسامهم العضل

الملفوف ، والنضارة والحيوية المتدفقة ، والحمرة البرنزية ، فكانت مدرستهم خير مدرسة لإخراج الرياضيين ، الذين ينفقون ساعاتهم فى استغلال هذا النشاط الرياضى للكسب والوفر ، ويكسبهم النشاط الجد وحسن التفكير ، والتدبير والتنظيم فى كل عمل يقبلون عليه أو يجول بخاطرهم ، فالإقبال المرح بشغف على أى عمل يطبعه بالاتقان والتميز ، فيكسب المرء بذلك الثقة والجدارة وتؤهله صفات خاصة للقيام بجليل الأعمال ، هذا مفهوم الروح الرياضية والأجسام الرياضية ، والعقول الرياضية فى عالم اليوم ، هذا فى مدلولها البسيط إن لم يتداخل فيها تفاعلات تفسد ما جعلت له ، وقد يكون القلب هو العامل الأساسى فى إفساد كل هذه المدلولات ، ولم يعرف إلى الآن علة أو دواء يمكن به أن يقف بالقلب عند تأثيرات معينة ، وسواء أكان العقل هو المسيطر على القلب أم بالعكس ، لا مجال للشك بأن القلب يلعب دوره الهام فى حياة بعض الناس ، أو قسم كبير منهم ، ولسنا نستطيع أن نحكم أنه خير للمرء بأن يعيش بقلب ذى نبضات عادية فيما يختص بروتين الحياة ، أم خير له أن يكون خفقانه فى مجال أى تأثيرات قد تبعث موجة منها على الالهام والوحى والابداع ، أو تتسبب بكارثة أو فاجعة أو مأساة ، كل هذه الاحتمالات والتعديلات إنما هى إجتهاد ،

يكون فيها عامل الصدفة والحظ عاملا هاماً ومباشراً .

كان يتردد على هـذا الفندق الفخم ، كثير من القاصدين والرواد ، وطلاب الراحة والاستجمام من جميع البلاد المجاورة ، وكان فى الشتاء الذى اشتهر جو هذه البلدة خلاله أنه خير جو للمشتين ، والذين يريدون أن يصرفوا زوائد مافى جيوبهم من مال حلال أوحرام ، فى سبل مماثلة لحالات المال ، فلا يجدون غير هذه البلدة لهم ملجأ ، وخاصـة المثرين المصابين بأمراض الجلد والروماتيزم والكلى تراهم يهرعون للاستشفاء فى حمامات تلك المدينة المعدنية التى يرجع عهدها إلى الملك سليمان الحكيم ..

وكان من جملة من يتردد ويقصد هذا الفندق بعينه فى كل مناسبة تلوح طبيب انجليزى مشهور ولنسمه الدكتور (بيكر) ..

هذا الطبيب هو فى العقد السادس من عمره ، وله ابن تخرج طبيباً ووالده فى هذه السن ! ! . . وعرف عن هذا الطبيب أن امرأته عجوز شمطاء ، ولـكنه هو ، مع أنه فى هذه السن المتقدمة من العمر ، كان له جسم الرياضيين من الشبـاب . كان مغرماً لأقصى حد بأخذ حمامات السباحة وحمامات الشمس ، حتى بدا جسمه يتحدى أجسام الشباب ، وإذا كان لابد مع هذا من اعتبار فارق السن فى الحالات العاطفية ، فمع هذا ، كان يحلو له أن يتحدى الشباب ، ويصارعهم ، ويبارزهم فى ميادين العاطفة

واجتذاب قلوب الخرد الغيد ! ! . . وأغلب الظن أن الأجسام وحدها لا تكفي لإغراء القلوب وافتتانها ، بل هنالك خصائص النكتة وحلاوة المنطق وعذوبة الحديث، ومميزات عديدة لا بد منها لقيس عند كل ليلى..

وأغلب الظن أنه راقت فى عين ابن الستين هذه الفاتنة الألمانية ، فنصب حولها شراكه وشباكه، وجعل الفندق والمسبح كعبته ، فقد كانت وظيفته تقضى عليه بأن يسير متنقلا فى بلدان تلك المنطقة ، فكان كلما فرغ من جولة سريعة يعود لتلك البلدة فيقضى فى فندقها أياما ، يعود يعدها إلى مركز عمله فى بلدة نائية تبعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر عن طبريا ..

وكل ما نعلم أن الناس بدأوا يتهامسون ، بعلاقة بين هذا الطبيب وتلك الفاتنة الجرمانية ، وعجب الناس أيما عجب ، هذه زوجة أجمل وأغنى وأرجل من فى البلد ، ولها بنتان من زوجها الذى فى حدود الثلاثين ، وهى فى الخامسة والعشرين ، وعشيقها فى الستين ، وقد صار اقترانهما بعد حب وتفاهم تام مطلق هجرت بعده ديارها وتبعت من ارتضته زوجها عن طيب خاطر وبمحض إرادة !! ..

وإذا كان للعلم حتى الآن أن يربط كل ظاهرة أو تفاعل بقاعدة معينة أو بمعادلة ما . . فإن العلم . . والعالم . . لن

يستطيعا أن يربطا تفاعل العواطف . . . والقلوب . . . بأية قاعدة أو معادلة على الإطلاق . . سيبقى الناس حائرين . . . مشدوهين . . كلما سمعوا بمثل هذا الحادث . . فيتساءلون : كيف ولماذا ؟ ! . . وماهى المغريات . . وماهى المميزات . . والجاذبية التى استطاع بها ابن الستين إغراء بنت ال ٢٥ ؟ ! . . ولن يجدوا حلا لمثل هذا اللغز وأشباهه . . لن يستطيعوا أن يضعوا قاعدة للحب : هل هى الجمال والصحة والذكاء مثلا ؟ ! فهذه الفاتنة الجرمانيه لو أرادت التقاط مثل هذه المميزات لوجدت الآلاف ممن تتوفر فيهم هذه بأوضح وأوكد المعانى يترامون على قدميها يطلبون ودها لينعموا بلفتة من لحاظ فتاكة آسرة ، وبجسم جلت قدرة الخالق فى إبداع تكوينه . . وبذكاء وعلم . . ومقدرة اجتماعية . . فائقة . .

وأخذ لغط الناس فى ازدياد . . ومهما كانت المرأة قادرة على التستر وإخفاء عاطفتها . . أو طمس معالم آثامها . . فإن الرجل بحاسته السادسة يستطيع أن يكتشف الشىء الكثير ولو بعد مرور زمن ، ولو بعد تجارب واختبارات عديدة ، فلهذا الكون أنظمة معينة وهنالك اصطلاحات تجرى مجرى العرف والعادة والتقاليد ، تتبعها مجموعات من الناس ، كل مجموعة على حدة ، فى ناحية من نواحى الأرض . .

ولا بد للفرد من السير بموجبها ، فإن شذ لقى جزاءه ، والقصاص يكون بقدر الخطيئة ، أو ما يصطلح على تسميته خطيئة ! ! . . والعاقل حين يتلقى الجزاء يسكت ويرجع إلى محاسبة ضميره وقد يعتبر ؟ ! . وأما الأخرق فيضج بالشكوى ، ويتمادى فى أخطائه ، فتكون الأصداء أشد هولا ، والقصاص أعظم نكالا ، والإصابات أبلغ أثراً ، فيكون فى شكواه وفى لهوه أو إهماله محاسبة ضميره مدعاة للشماتة والهزؤ والفضيحة..

وما قيمة لغط الناس ؟ ! . . وأحكامهم ؟!. وهل كانت فى أى مشكلة من المشاكل إلا سبب تعقيد وإساءة؟!..والشكوى متى كانت إلا دليل ضعف وخور وسوء حيلة ؟ ! . . متى كان يحصل الرجل أوالمرأة على الإنصاف والعدالة فى شكواه للناس؟ إن الرثاء وقول مسكين أو مسكينة ، أو الاشمئزاز من التعرض للبحث فى نزاع عائلى ، لأصعب عليها أوعليه ، عاقلة أو عاقلا ، من وقع الحسام المهند ! ! . ما أعقل من يدفن كل نزاع داخلى بين جدرانه الأربعة ! ! . . وما أنبل الصبر والتحمل ، حتى من ظلم أشد الناس قرابة ، وأقربهم آصرة ! ! .

وكتم هنس ما اكتشفته حاسته السادسة ، وغاص فكره فى تحليلات وتعليلات ، لا آخر لها .. حاول أن يحل هذا اللغز ، فاستعصى عليه الوصول إلى حل ما . . حاول أن يكتشف

بنفسه عيباً أو نقصاً أو تقصيراً ، أومزية يمتاز بها غريمه عليه ، فاستحال عليه ذلك ، أحب أن يغالط نفسه .. ويوهمها أن ذلك ضرب من اللهو والعبث ، فربما عن لها أن تلهو بقلب هذا العجوز المتصابي ، وتعطيه درساً قاسياً بعد أن يتدله بها ، ويتعلق قلبه بقلبها ، فتتركه صريعاً ، وتعطيه عبرة قاسية بأن لا يحاول القرب من الصبا والجمال والفتنة بعد الآن ، بل أحرى به أن يفتش عن نساء الأربعين والخمسين لا الـ ٢٥ والثلاثين ؟! حاول أن يقنع نفسه بهذا القصد وهذه الغاية التي قد تهدف لها من وهبها — كما وهبته — نفسه وقلبه ، وأتى بها من بلاد قصية غازياً جذلان نشوان ..

وجد صاحبنا بعد طول أناة كل هذه التعليلات ، سخيفة ، عند النظر بمنظار صحيح إلى قضيته ، ينظر لها صاحب التربية القويمة السليمة ، نظرة تتعلق بالمبدأ ، والمثل الرفيعة ، وارتباط القلوب بحب والحب معناه حب ، لا لعب وقد رضي كل منهما صاحبه ، وحملت بنتان — كزنابق الربيع — اسميهما ، فتفر بعض النفور ، وانكب على عمله ، يرهق نفسه آناء الليل وأطراف النهار ، ينشىء البساتين المليئة بالورود والرياحين في كل شبر أرض حول المقهى ، ويحيط الفندق بأشجار يتعب نفسه هو في غرسها وريها ، ويخدم بنفسه زبائن الفندق والمقهى والمسبح ويساير هم

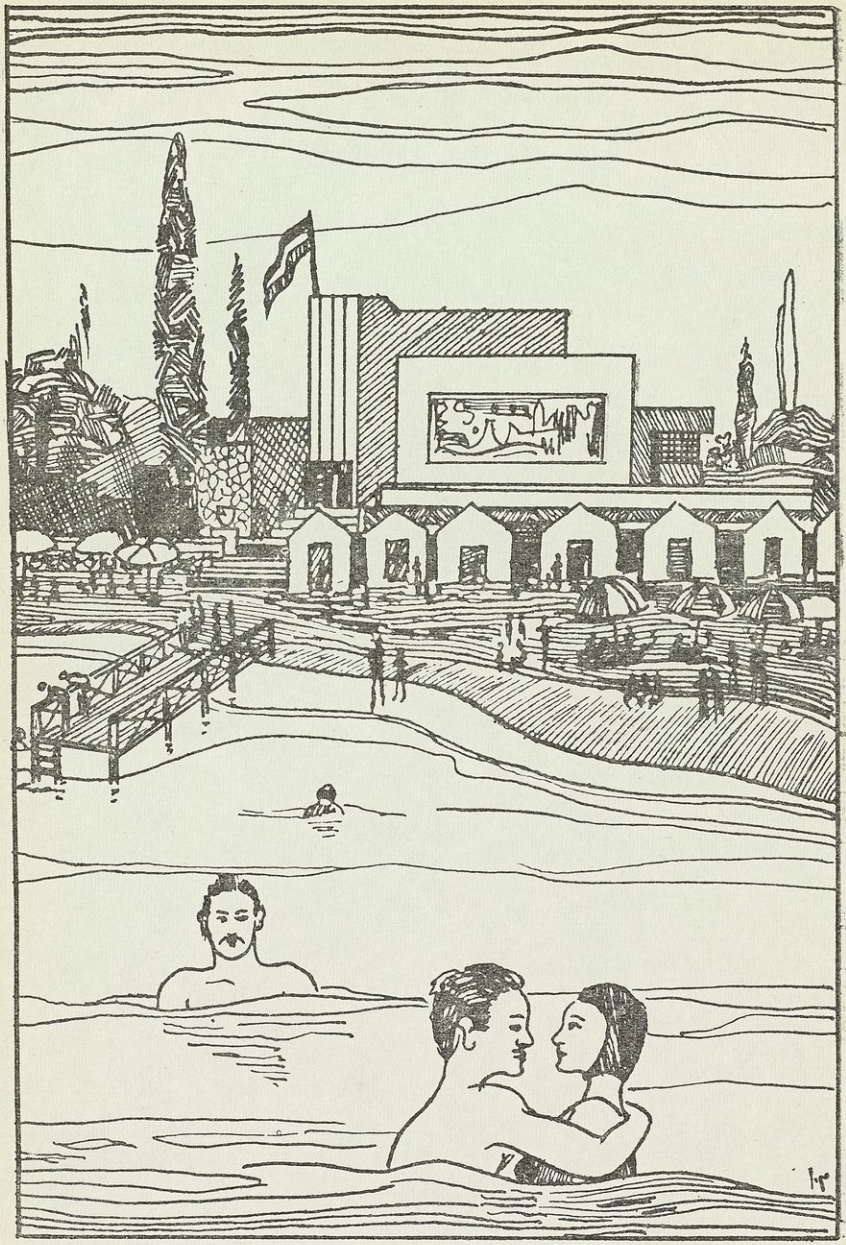

ويجاملهم ، ويسهر على راحتهم ورضاهم ، ويغدق المال ويوزع الهبات والإكراميات على كل مستخدم أو موظف يعمل فى مشروعه ، يوزع النكتة والظرف على كل شلة من الأصدقاء حول كل منضدة من المناضـــد . استحصل على قائمة بأسماء العائلات التى حطها الزمن من عل ، فذلت بعد عز ، فخصص لها مخصصات شهرية ، ألف ناديآ رياضياً فى البلدة من خيرة شباب البلدة ، وفتح ملاعب التنس والكرة ، وكرة السلة .. التى ضمن مشروعه للأعضاء بأبخس الاشتراكات. أقام الحفلات الشهرية الصاخبة العائلية الاريستوقراطية ، والشعبية البسيطة ، لمختلف الطبقات ، وكان يحرص على أن يظهر فى كل نشاط من هذه المتنوعات مع امرأته وحبيبته ، ويعاملها بمنتهى الرقة والاحترام واللطف ، فأسر القلوب ، وطار صيته .. وذاع . . وأصبح اسم هنس على كل شفة ليس فى البلدة هذه فحسب ، بل فى البلاد المجاورة قاطبة ، وتدفقت الأرباح عليه ، وساهم بكل مشروع حيوى مفيد للبلد ، وتبرع لكل عمل خيرى وإنسانى نافع . . .

وفى ليلة من ليالى أغسطس ، وقد بلغ فيها الحر أشده . . كان يجلس حول منضدة من مناضد المقهى الصيفى ، فى الهواء الطلق ، شلة مختارة . كان يجلس غريمه ، ورئيسه ، كبير أطباء

المقاطعة ، وطبيب البلدة المرؤوس لكليهما ، وحاكم البلدة .. وصفوة من أصدقاء هنس الخلص ، مع عائلاتهم. وبعد منتصف الليل بساعتين انفض السامر ، ولم يبق فى المقهى الصيفى إلا هذه الشلة ، التى يغرقها هنس بكرم ضيافة فاق كل حد ووصف ، وحديث عذب وقصص تتوالى ، وضحكات تملأ عنان السماء والفضاء ، فترنحوا جميعا ثملين ، بنشوة ليلة من أحلام الزمان . لم يكن بينهم صاحيا واعيا متماسكا كل أعصابه إلا هنس ، وعند ما بلغت النشوة ذروتها فى الرؤوس والنفوس ، وأصبح كل من فى المجلس غير قادر على أن يكتم ما يصدر من أحاسيس ودوافع ، وهذه ميزة هذه الحالة ، إنها تظهر المرء على حقيقته . . استغل هنس هذه الفرصة التى رتب لها الأمر بكل إحكام ودقة .. واقترح على الشلة جميعها أن ينزلوا للسباحة ، لإطفاء حر هذه الليلة القاسية ، فما كان أسرعهم للاستجابة ! ! وبعد لحظات كان أكثرهم يغطسون فى الماء دون انتظار للبس ملابس البحر الخاصة ، وهنالك فى حندس الليل ، كان جميعهم لاهين لاعبين عابثين ، تسكرهم النشوة ، إلا عين واحدة ، كانت يقظة ساهرة مراقبة تتبع بحذر ودقة شخصين . .

ولكن الاستهتار الذى تبعثه هذه النشوة لا يعير اهتماما لرقيب أو حسيب .. فاندفعت العواطف سيالة على سجيتها . .

واقترب فى البحيرة الهادئة ، فى الماء ، جسمان على انفراد بعيداً عن الشلة . وأخذا يتناجيان ، بصوت لا يسمعه إلا هنس ولا يرقبه إلا هنس ، ولكنه خير سباح ، وخير رياضى ، فغطس فى الماء ، وبقى غاطسا تحت الماء مدة من الزمن . على مقربة منهما ، فسمع ما دار بينهما ورآهما يتعانقان ويتشابكان بعض التشابك .

وكان العناق كافياً ، لديه ، دليلا ، ولم تكن إذ ذاك مياه البحيرة جميعها كافية على أن تغسل هذه الجريمة فى نظره .

الآن . . .

وقد تحقق ، وتيقن ، ولديه البرهان ، والأدلة ، اطمأن ، وعادت إليه رجولته ، ترك الجميع فى لهوهم وعبثهم ، وانسل ، ممراحا طروبا ، وفى نفسه أن يمثل الدور حتى النهاية ، بنجاح تام ، وانسحب الباقون ، وكان آخر من خرج من البحيرة العذبة ، ابن ال ٦٠ وبنت ال ٢٥ ، وبعد السباحة ومعاودة النشاط للأجسام ، ودّع كل صاحبه وعادت العائلات إلى بيوتها ، والضيوف إلى الفندق ، وحمل هنس زوجته إلى فيلته الأنيقة الفاخرة .

وحين اطمأن إلى أن أنفاسها الرتيبة الموسيقية تنبىء على أنها نامت وغطت فى أحلام الكرى ، انسل من فراشه وودع

بنتيه وهما نائمتان وداعا حاراً ، ودخل الحمام ، وأحكم رتاجه .. وصوب فوهة مسدسه على صدغه ، وأطلق رصاصة واحدة ، لم يحتج بعدها إلى ثانية ...

سمعت امرأته ، صوتاً ما . أزعجها ، فنادت: هنس ، هنس ، فلم تسمع جوابا تحسست فراشه إلى جانبها ، فوجدته خاليا ، ذهبت إليه فى الحمام تناديه .. أن صوتا مزعجا أقلقها ، فلم تسمع جوابا منه ، طرقت الباب ، فما أجاب ، دقت بعنف .. ولا جواب ، صرخت منادية الخدم أن تعاونوا على تحطيم باب الحمام .. فوجدوا جثة ، وإلى جانبها ورقة كتب فيها بخط يده :

عزيزتى .. كذا ...

رجائى إليك أن تعنى بتربية الطفلتين تربية صحيحة سليمة قويمة ..

ومشى فى جنازته أهل البلدة قاطبة ، نادبين معولين ، آسفين على صديق كان يشعر بشعور كل واحد كأخيه وكنفسه ..

وفى اليوم التالى .. كان أهل البلدة يرون فتاة تمشى فى ثياب سوداء ، لا تتلفت يمنة أو يسرة ، وكأن كل هموم الدنيا .. وأحزان البشرية ، وأسف السماء والفضاء متجسم فى هذا الهيكل الأسود الذى يمر كالطيف بين المقل ، فرثى لحالها قليلون .. ونقم عليها كثيرون ، ولكن ما كانت تظهره من أسف وحزن

كان فيه بعض شفاعة عند الناس . حاولت به اكتساب بعض العطف . .

ولكن . . بعد أقل من أربعة شهور ، من هذا التزمت والحزن ، أو إظهار الحزن ، عادت سيرتها الأولى ، خلعت العذار ، وكأن شيئاً لم يكن !! . . وتركت الطفلتين إلى مربية .. وأخذت هى سبيلها فى ألوان المجون والعبث واللهو . .

وقال بعض الناس : لعله كان جديراً به أن يقتلها هى قبل أن يقتل نفسه ، أو يقتل غريمه أو يقتلهما معاً . . وقال آخرون إنه فعَلَ فعلَ الفرسان الأبطال ، الذين يفضلون الموت بعد الهزيمة ، وعلى الأخص فى معركة خلاصة الحياة والعمر . . فوجد أن من العار عليه أن يعيش موصوما ، يشير إليه الناس ، هذا ابن الثلاثين ، هذا ابن الصحة والجمال والشباب والغنى ، صرعه ابن الستين ، لا يفضل ذلك بشىء قط ، ففضل الموت . . فضل أن ينهى حياته بيده على أن يعيش ذليلا منكس الرأس ، وتركها ، لوخز الضمير ، ومحاكمة الوجدان ، ولكن ، إن من لا يملكون ضميراً أو وجدانا ، لا يبالون بما يقول الناس عنهم أو بما هم يفعلون !! . .

أيتها الحسناوات الجميلات

صلاتكن تسبيح الفنان الأول الأعلى بالعشى والإبكار !!..

رباه .. حول القصر إلى خيمة ؟ !..

وعاد يبحث بين الخيام والقبائل عمن تستطيع
أن تشاطره نعماءه راضية مرضية . . لا أثر فى
نفسها لحب صخب أوضوضاء أوسهر ليال حمراء
عامرة فاسدة مفسدة ! ؟ . .

زجّ به الزمن فى الغرب ، فى بعثة ما ، إلى لندن وكان شغوفا أينما ذهب بدراسة أسباب عظمة كل أمة ، والتعرف إلى خصائص ومواهب الشعوب التى تطورت فأصبحت تعد فى المقدمة قوة وعلما وفنا .. كانت ملكة حب الاستطلاع عنده قوية جارفة ،

كثيراً ما يتفرس الوجوه ويتأملها ، ويستخلص من تفاوت السحن نماذج بشرية خليقة بالبحث والتأمل ، وكان لتأثير الجمال عليه بكافة أوجهه قوة مغناطيسية لا يستطيع مقاومتها قط ..

وفى حفلة جمعت مئات من المدعوين والمدعوات، أخذ يجول بعينيه ويمر بين المدعوين ، وكثير ما يرى المرء فى مثل هذه الحفلات وجوها جديدة . وكثيراً ما يستوقف إنسانا يعجبه فيتعرف به ويتصل بهما حبل الحديث ، ثم ينتقل من جماعة إلى أخرى ، يمازح هذا ، ويضاحك ذاك ، ويجامل هذه ، ويسأل عن تلك ، وكثيراً ما يكون لك صديق بين جماعة يدعوك ليعرفك بمن حوله، وقد تدعو أنت بعد ذلك هذا الصديق مع من أعجبك أن تتعرف عليه ، فتتفرع الحفلات ، وتكون سبباً لروابط أخرى ، وكل فى هذه المجالات يغنى على ليلاه ، فرجال الأعمال يفتشون عن صفقة ، ورجال العلم يتسلون بالمجادلات العلمية ، ورجال الصحافة يتسقطون الأخبـــار ، ورجال الفن يبحثون عن الجمال والغنى، ولن تخطىء العيون رجالا ونساء هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للجمال والغنى ، فهم أعلام فى كل مكان وزمان . .

وعند قرب نهاية الحفلة ، غمزه صديق قديم ، وقال :

عنـدى سهرة متفرعة ، خاصة ، تبدأ آخر الليل وتستمر

حتى نهايته ، فانسحب وصديقه ، عند أول انفضاض السامر ..

وعند درج الفندق الفسيح ، ولعله الدورشستر!!.. والناس يخرجون زرافات ووحدانا فيتسع الدرج لعشراتهم دفعة واحدة علقت عينه ، بفتاتين ، نظرت إليه إحداهما نظرة خاطفة . . وبأسرع من أن يتصور تقدمت الجميلة منهما جمالا خارقا ، فعند ما رآها متجهة صوبه تقدم نحوها وترك صديقه بعيداً بعض البعد ، وتقابلا وجها لوجه فى طرف من أطراف الدرج والتقت عيونهما لقاء رهيبا باهراً ، وابتدرته بقولها :

ألا تذكر أننا التقينا بالحفلة السابقة ، وكان تعارفنا العابر الأول كأنما يستوجب أن نلتقى بين الحين والآخر بحفلات عابرة كهذه .. فكيف . .

فقاطعها بقوله :

ولكن إذا وجدت سيدتى متسعا من الوقت الليلة لنتم سهرتنا ، فيكون فى ذلك لطف غامر ..

قالت : آسفة الليلة ، ولكن فى ليلة قادمة . .

قال : ولكننى مسافر غداً ، بعد الظهر ، أغلب الظن . .

قالت : إذا بقيت ، فموعدنا الساعة الثانية عشرة ظهراً فى فندق بركلى . .

وفى الصباح الباكر ، تلقى تعليمات بأن عليه أن يستعد للسفر

فى الثانية بعد الظهر ، فكر ودبر ، إذن لديه متسع من الوقت لقضاء ساعتين بصحبتها ، فدلف فى الميقات الموعود إلى فندق بركلى ، وأكل معها وجبة يعتبرها من أشهى وجبات العمر . .

كانت الأيدى ما أن تفرغ من تناول لقمة ، حتى تشتبك وتعصر وتتحسس . . كان يعتقد أن هاتين الساعتين من فلتات العمر ، فى منح الله التى لا يجود بمثل هذه الصدف إلا فى النادر النادر . . كان يرى أن بين يديه ثروة . . كل سنتيمتر من جسمها يرغمك على تسبيح الله : منسق ، منضد ، منسجم ، طرى ، مرن ، فتى ، ريان ، نضر ، ربيع . .

وافترقا . . .

وعاد إلى الشرق . .

واستمرا يتراسلان ، ويتباثان لواعج الشوق والهوى . . والصبابة والوجد ، ويتمنيان ، ويمنيان النفس بلقاء آخر . .

وبعد عام . .

عاد فى بعثة أخرى . .

بعثة تتطلب منه الجد كل الجد ، وبذل أقصى غاية الجهد . . وضع نصب عينيه أن ينجح ، وأن يبرهن للناس جميعا أنه خليق بالثقة التى توضع فيه ، خليق بتقلد أصعب المهام وأجل الأعمال ، فلم يجعل للهوى إلى قلبه سبيلا ، وقهر كل عاطفة لديه

وانكب على ما أرسل من أجله يدرس ويجد السبيل للتسرب بين المجتمعات والأوساط لينقل للغرب عدالة قضية خاصة كانت تشغل أذهان العالم، وأصاب بعض النجاح فى تأدية رسالته، وأقام ضجة ناجحة بعض النجاح، ولكنه فى واد، والجماعات التى يعمل لها فى واد، جماعات لا تعرف استغلال الفرص، ولا اكتساب الوقت.

ومع هذا، كان هنالك فراغ كبير، لابد من اللهو والاستمتاع بحدود، يجعل المرء فى كثير من الأحيان أكثر نشاطا وإقبالا على العمل، وخاصة بعد تركيز الأعمال وترتيب شتى فروعها.

وتعرف خلال ذلك إلى وجه، كان لابد له من مقابلته كل يوم، لأنه على مقربة من مركز عمله، كان ينحنى لها باحترام وأدب وجد، كلما التقى بها، فتحييه تحية، لا هى بالعابرة، ولا هى بالشيقة..

وفى يوم، وهو خارج من مركز عمله، احتاج إلى أن يصل إلى أقرب مكتبة لشراء بعض الكتب الهامة التى تبحث فى موضوع معين، فوجدها تخرج من مركز عملها، فحياها، وسألها سؤالا سريعا عما إذا كانت تعرف من مكان وقوفهما أقرب مكتبة، فتأسفت لذلك، وقالت:

المكتبات الهامة ، فويل ، مثلا ، وهذه بعيدة عنا ، فى شارع كذا . . وفى (رسل سكوير) ، وهذه أقرب ما يكون لنا فاذا استطعت الوصول إلى هناك بتكسى، فلا بد من نصف ساعة وإذا نزلت (بالتيوب) قطار تحت الأرض تصل كذلك بنصف ساعة . فتلفت حوله ، فلم يجد إلا تكسيات ملأى بالركاب تمر من حوله ، فقالت مشجعة :

هيا ، إلى التيوب ، أقرب .

ـ أأنت ذاهبة فى ذلك الاتجاه يا سيدتى ؟ . .

ـ لا بأس ، أرافقك حتى أهديك إلى المكتبة أو المكتبات التى بإمكانك الحصول منها على بغيتك من الكتب .

ـ شكراً ، وذلك لطف كبير منك ، على أن لا أكون سبباً فى تأخرك عن أى عمل .

ـ لا ، أبداً ، وبطيبة خاطر .

وبعد نصف ساعة كانا على باب مكتبة كبيرة ، وعند ما دخلا ، فوجىء صديقنا بوجود أصدقاء فى تلك المكتبة كان قدم معهم على الباخرة من السويس ، ولا يدرى كيف قدم رفيقته لهم ، وكيف أخذ أحدهم ، وهو زلق اللسان، خفيف الروح ، متعدد مناحى الثقافة ، أخذ يجرها للحديث جراً .. ويضحكها ، ويستجوبها ، ولا ندرى كيف انكمش صاحبنا، وفى

قرارة نفسه كره من صديقه هذه الجراة ، التى ود من صميمه لو كان لديه جزء منها ، وخشى إذا طال بهما الحديث أن يأخذ موعداً منها ، فاستدرجها إلى السؤال عن الكتب والتفتيش عنها فى نواحى المكتبة ، وبذلك استطاع سحبها من صديقه الشيطان . .

وبعد شراء الكتب خرجا ، مودعين ، فأطرت رفيقته مواهب صديقه وقالت : إنه يعطى انطباعا طيباً عن الشرقيين ، فشكر لها هذه المجاملة ، وسار وإياها فى الطريق فى وقار وجد ، وحديث فيه من السؤال عن هذا والاستفسار عن ذاك ، مما يحدانه فى الأحياء هنا وهناك .

كان عليه أن يضع الكتب فى (البنسيون) ، فاستأذنها أن يرميها فى البنسيون ويعود لتوصيلها إلى حيث شاءت ، فان لم تجد مانعاً أن تشرب القهوة معه فى البنسيون فأهلا وسهلا ، ويظهر أنها لم تمانع للفكرة ، فشربت معه القهوة ، فى البنسيون ، ولكنه أثناء ذلك كان يحس إحساسا غريباً ، أن هذا الشىء الفنى ، الذى يرافقه ، يوليه اهتماما غير منفر ، بل اهتماما فيه كثير من الاحترام وحسن الإنصات .

وهما خارجان من باب (البنسيون) أخذها بيدها ، فنظر فى وجهها ، وإذا ابتسامة صفراء مختلجة تتراقص على شفتيها ،

فاستغرب ، وأوصلها إلى أقرب طريق إلى بيتها ، وعاد .

ظل يفكر ، ولكنه كان يصل إلى نتيجة أن هذه أبعدعنه من القمر ، وما ذلك الاحترام ، ومبادلة الرأى والحديث ، الا ما امتازت به السكسونيات من ظرف وقوة شخصية ، تقف بالمرء عند الحد الفاصل بين الزيادة والنقصان ، بين المد والجزر ، بين الأدب وقلته ، وبين الجد والاستهتار .

مضت ثلاثة أيام على لقائهما الأول ، وفى آخر ساعات العمل ، وهو خارج فى الساعة الخامسة مساء ، التقى بها للمرة الثانية ، فكان أكثر جرأة بدافع الشوق والحنين . قال :

هاللو ، كيف أنت اليوم ؟ . . . هل من جولة أخرى بين الكتب ؟ . .

قالت : لا بأس ، إذا كنت ترغب ذلك . .

وذهبا فى نفس (التيوب) ، وإلى ذات المكتبة ، وحمل معه اليوم كتبا يحتاجها أولا يحتاجها ، ودعاها مرة أخرى للبنسيون ، ودخلت معه للمرة الثانية ، وفى هذه المرة نوّه لها أنه يحمل معه بعض التحف والرسوم من الشرق ، فى غرفته ، وأنه يرغب لو لم يكن لديها مانعا أن يريها تلك ، فجذبت الفكرة

قال : ولكن هل ترين أن نأتى بها إلى هنا للصالة أو ، ماذا ترين ؟ . .

قالت : لا بأس من الذهاب لغرفتك إذا كانت هناك ؟ .

كان هذا بنظره حلما من الأحلام ، كان هذا مستحيلا من المستحيلات .

ولو أنها قبلت بذلك ، أو أظهرت عدم اهتمام للذهاب معه أينما كان ، فلا بد أن هـذا من دلائل قوة الشخصية الغربية ، وليس للشرقى أن يتهور ، أو يتوهم أن فى ذلك مايطمعه أن يفقد وقاره ويجرئه الجرأة الوثابة الجامحة ، هـذا ماكان فى تقديره وهما يصعدان الدرج .

وعند ما احتوتهما الغرفة ، ونثر ما عنده أمامها من صور وتحف ، أخذت تتأمل صوره باهتمام ، وهو فى مختلف البلاد الشرقية ، وبمختلف الملابس والهيئات ، وبمختلف المناسبات ، وكذلك صور بلاده ، فى صحرائها القاحلة ، وجبالها الشاهقه ، وبساتينها العامرة ، وحيواناتها المتنوعة . وهو مرة على صهوة جواد ، أو سـنام جمل ، أو بين واحات النخيل ، أو حدائق البرتقال ، أو بين الشواطىء الغاصـــة بالأجسام والأفلاك والعمران ، أو وهو فى رحلة صيد وراء الظباء ، أو فى الألبسة التقليدية الوطنية الساحرة ، كل هذه كانت لدى هذه الغربية شيئاً من الطلاسم والألغاز والسحر ، هذه وسيط التنويم المغناطيسى فكانت تسترق إليه النظر ، وتقابل هذا الزى الغربى الذى يتزيى

به بالأزياء الشرقية ، فتتمنى لو تراه بألبسته الحقيقية ، وكلما لامست يداه يديها وجدهما ساخنتين ، كأنما البخار يهب منهما ، وتلتصقان بيديه حتى لا تحاولان حراكا أو تنقلا ، فوجد أن هذه فرصة ذهبية قدلا تعود قط ، فكان يمرر أصابع يده على كفها ، وعلى ساعدها المتلألىء ، وكأنه لا يتعمد هذا التمرير ، فيجدها ، ساكنة ولكنها تهز رأسها هزتين ثلاث عنيفة ، وتلحس بلسانها أطراف شفتيها ، وتهدأ ، ولكن هدوء المحموم.

وبعد قليل ، كان لابد من أن يأخذها بين يديه ، فكانت بين يديه كطفلة مستسلمة مما يتجاوز كل احتمال أو تصوّر . .

ذعر صديقنا ، وقال فى نفسه :

يا لله !.. أبهذه السهولة يحصل شرقى جاء بالأمس إلى بلد الفن والجمال والعلم . . على مثل هذا الجمال الخارق ، الذى لو شاء لجعلنى عبداً له ، أهذه طلاسم الشرق وألغازه وسحره ؟.. تدلل كثيراً .. وتمنع .. هو !! لاهى !! وكبح من جماح نفسه .. حتى أصبحت بعد اليوم أسلس من خاتمة ، وأطوع من خادمة! وأقرت المسكينة ، فى نشوة من لذات العمر ، وساعات الدهر الحالمة قائلة . .

لم أكن أتصور قط أن تتنازل فتكلمنى ، عند ما كنت

أراك كل يوم ، بل كنت أترقب الساعة التى تخرج فيها لألقاك فى الطريق ، فكان وقارك يرهبنى وجدك يطغى على ، وأجدأن فى سيماك ومظهرك عمق الشرق وألم الشرق ، وسحر الشرق ، ومع هذا ماكنت أجرؤ على التبسط معك ، وقد شعرت بسعادة تغمرنى حين دعوتنى لأول مرة لمرافقتك ، وبعد أن عرفتك الآن معرفة حقة، أشعر أن الحراره التى عندكم والعاطفة الحقيقية لا نجدها مع هذه الأشباح التى نجدها فى المكاتب ، ودور السينما والأوبرات والمتنزهات ، إنهم أصبحوا لكثرة معاشرتنالهم والتصاقنا بهم لايقدرون القيمة الفنية لنا . . ولا يجعلون ممن أسبغ الله عليها كل مسحة من مسح الجمال والفتنة أدوات ووسائل لإثارة روح الشعر والهوى والوحى . إننا نشعر بقيمتنا الفنية وبجمالنا الخارق ، ولكن نريد أى نرى تأثيره الخارق كذلك فى النفوس . لقد ضعفت روح التقدير للتبذل والشيوع ، وأما أنتم يا أهل الشرق ، فاذا هام أحدكم بقطعة فنية ، جعل منها نموذجا حياً للأسماع ، وكان طابع الوفاء والإخلاص والتركيز هو الغالب فى عينه .

أعجب صديقنا بما سمع ، إنه يفتش عن ملهمة ، عن أداة رفيعة ، وها هى بين يديه ، إنها ليست فاتنة الجسد فقط، ولكنها

ذات فكر واسع طلق مشع ، وهى فوق هذا وذاك تعرب عن تدلهها وهيامها بفصاحة وأسهاب، فهى لذلك تستحق معاملة خاصة.

كان كلما وجد فرصة لمناجاتها ، لا يضيع تلك الفرصة قط إنها أصبحت موضع دراسته وبحثه الفنى ، إنها مخلصة ، وهو ليس من النوع العابث الكثير التنقل فى مطارح الهوى واللذات فقد وجد مثاله وهدأ إليه ، وتشبث به ، ولكن هذا الاهتمام المستمر ولد حالة خاصة تسمى الغيرة فى عرف المحبين ، كان يريد أن يعرف كل ثانية تغيب عن وجهه أين تقضيها ؟!. وكان هذا يزعجها جداً ، لأن هذه الحالة ليست معروفة على هذا النطاق الشديد فى الغرب ، وكانت تفهمه ذلك ، فلا يجد أنه بمستطيع أن يتخلى عما ورثه فى دمائه ، إلا أنها كانت تحاول أن تتقيد بأسلوبه ولا تجعل أى شك يتطرق إلى ذهنه ، لأنه كلما طلبها وجدها مستعدة لإجابته . وأصبحت أية التزامات اجتماعية تأتى بعد استشارته وموافقته ، وكم كان يلذ له أن يلغى أية التزامات لها فتذعن راضخة دون جدال .

لذه أن يلعب بقلب امرأة غربية فى صميم الغرب ، وأية امرأة ؟!. امرأة تفخر بها أعظم الصالونات والمجتمعات ، قلبا وعقلا وقالباً !!.. وعرف أن العامل الوحيد المسيطر هو

كبح الجماح ، والتحكم بالأعصاب ، وعدم إعطاء النفس هواها الجامح ، فحافظ على هذا النظام الرتيب .

وفى يوم من الأيام ، وهو متأبط ذراعهـــا ، ألح عليها بأسئلة دقيقة تشتم منها رائحة الغيرة السافرة ، غير مراع أن الشارع العام ليس المكان المناسب لهذه الأسئلة ، فشدت يدها من يده وقالت :

أغرب عن وجهى ، فقد ضقت ذرعا بغيرتك ، وأنا الذى أكرس كل وقتى من أجلك ، حقا إن الغرب غرب . . والشرق شرق ، ولن يجتمعا ، ولن نجتمع بعد الآن .

صعد الدم إلى وجهه ، وحالا تصور كارثة ، لا بد ستحل به ، فوضع يديه فى جيبى معطفه ، ومشى صامتـا إلى جنبها . . ضابطا كل أعصابه ، دون أن ينبس بأية كلمة .

ومشيا على هـذا الشكل الصامت كأنهما بجنازة ، حوالى ٢٠٠ متر ، أو يزيد ، وما اقتربت من مكان غير مكتظ بالعابرين حتى التفتت إليـــه فوجدته جلموداً يتحرك مسمراً عينيه فى الأرض ، لا أثر قط لحس فى وجنتيه أو شـفته أو تنفسه البطىء ، ونظرت إليه ثانية وثالثة ، وهو يمشى كالمصعوق ، ثم انفجرت باكية ، تتوسل أن يغفرلها شراستها وتهجمها ، وقحتها وهو لا يتكلم قط ، وبقى واجماً ، ماشيا ، وهى تمشى إلى جنبه ، غير

مكترث ، لما نالها من تعب ، غير مكترث بأخذ تكسى أو النزول فى (التيوب) إلى البيت . وعند ماوصل بيته ، عند الدرج ، التفت إليها وقال :

مع السلامة ، نلتقى غداً ، ربما .

لم ترد عليه ، بل دفعت باب البنسيون ، ودخلت ، فحاول أن يعود من حيث أتى ، فأمسكت بتلابيبه ودفعته داخلا ، فلم يقاوم (كثيراً) ، بل كان هذا ما يتمناه تماما ، فى قرارة نفسه ولكن بعد أن يذيقها الذل جزاء فعلها .

وبعد قليل عادت المياه إلى مجاريها على أحسن وجه .

* * *

سارت الأمور بينهما على خير ما تسير بين المحبين ، وكان يفرض عليها فرضاً أن تتحمل كل ما يعجبها أو ما لا يعجبها ، ولما تمكن من عاطفتها تمام التمكن ، وتحكم فيها تحكما مطلقاً شرع يبحث عن أبويها ، وعما إذا كانا قد علما بهذه العلاقة بعض العلم . . ففاجأته بأن أبويها على علم بهذه العلاقة ، وأنهما استنكرا عليها ذلك ، لأنها من عائلة محافظة ، والمحافظون فى بريطانيا ذوو تقاليد معروفة لا يحيدون عنها ، وهم ينكرون عليها اتصالها بشرقى مهما كان ذلك الشرقى !! .

استغرب صاحبنا لهذه العقلية التى لا تزال مسيطرة على

البريطان حتى بعد فقدهم درة التاج : الهند ، وحتى بعد إذلالهم في كل ناحيـة من نواحي المعمورة ، ولـكن ليس من السهل استئصال عقيدة راسخة في ذهن جماعة من الجماعات بهذه السهولة . حاول أن يقهر الأبوين بالتعرف إليهما ، وإظهاره علمه وفضله وثقافته وأدبه وسحر شخصيته ، على اعتقاد أنه ما دام قد سحر الفتاة فلا بد أن يعطي التـأثير المطلوب لإزالة أي أثر سيء في نفس الأبوين ، فربما يغير رأيهما بالشرقيين ، فهذا كان من ضمن برنامجه وعمله في تلك البلاد ، إلا أنه عبثاً حاول . كان الرفض ، رفض مقابلته في كل مرة يفاتح الحبيبة بذلك .

كانت وحيـدة أبويها ، والوارثة الوحيدة لهما ، فأدرك أن ليس من السهل قط اقتناصها ، مهما كان تعلقها به .

* * *

استدار بذاكرته قليلا إلى الوراء ، فتذكر أن هنالك روحاً أخرى متعلقة به ، لم يشأ أول الأمر الاتصال بها إلا بعد تركيز شئونه ، وها قد ترتبت جميعها ، فأخذ تـكسي وإلى كامبدن هل فسأل عنها ، فقيـل له ، انتقلت إلى عنوان آخر بعيد جداً ، اتصل بها تليفونياً ، فكانت مفاجأة مدهشة لها ، وعينت موعداً في الغد ، ظهراً ، عند ريجنت ، وأخذ ينتظرها بتلهف .

وأطلت !!..

جاءت ، وياليتها ماجاءت ، أطلت من بعيد ، بقبعة عالية ، جميلة خلابة ، ومعطف من الفراء الفاخر ، وحذاء جد جميل ، تكسو يديها بكفين من الجلد الثمين ، إن وجاهة المظهر كانت تميزها على كل المارين والمارات .

ولكن !! ..

ولكن ، مع الأسف ، إنها شبح ، إنها كالظلال الباهتة ، أين منها ذلك الوجه الذى يتدفق شباباً وصحة وحيوية ورواء ؟!. أين ذلك الجسم الملفوف ، أين ذلك البريق الخاطف فى تلكما العينين الساحرتين ؟!.. أين أين ؟!.. وسلمنا ، ولكننى ذاهل ، حالم ، ودلو ابتلعته الأرض أو اختطفته السماء فيغرب عن وجهها بأعجوبة ، ولكنه أدرك أنه لا يملك البراق ولا بساط الريح ، ولا الكرامة الرافعة للأنبياء بعد الصلب ، فاستسلم للواقع المحزن ، ودعاها إلى مطعم صينى فى (سوهو) ، مطعم شرقى ، فجرت أذيالها وراءه . ذهبا مشياً بالطبع ، ودخلا ، وأدركت مايجول فى عينه . فابتسمت ، وقبل البدء بالطعام نادت الجرسون ، وطلبت ماء ، فأتى لها بالماء ، فأخرجت من جيبها ماسورة أقراص ، ابتلعت منها قرصين ، وشربت ماء ، ثم أخذت تحدثه :

بعد مغادرتك لنا ، بشهرين ، شعرت بآلام داخلية ،

استعصت، فاضطررت لإجراء عملية ، ولكن حدثت اختلاطات نتج عنها لزوم عملية ثانية ، فتأثر بنتيجة ذلك جسمها وفقدت كمية كبيرة جداً من الدم ، وها هي تعالج نفسها لاستعادة شبابها ونشاطها وحيويتها ، بشتى العلاجات دون فائدة ،وتأمل أن لا يكون فى ذلك إزعاج لى ، وفى سماع قصتها ماينفرنى منها ،

تأثر صاحبنا للخبر ، ولكنه تمالك أعصابه . وجامل . وأظهر كل شعور طيب ، ولكن ماذا يعمل ، تبخرت أحلامه وفوجىء بما لم يكن بالحسبان قط ، كان يرجو أن يرى عند هذه بعض التعويض الأدبى ، الذى يعوزه بإعراض أبوى تلك الحسناء المحافظة عنه .

عند وداعها ، قالت له بأسى وانكسار .

متى ؟!..

قال : بعد غد .

ولم يحن بعد الغد أبداً .

. . .

وكان له صديق كبير ، أخذ يتحدث مرة ، عن الزواج والمستقبل ، فقال له صديقه :

أراك أعجبت بالثقافة والحياة الاجتماعية الغربية . وددت لو تنظم شئون مستقبلك على أساس هذا التنظيم الغربى .

قال : أنى يكون لى هـذا ، لست بمستطيع مع الأسف ، فالشرق شرق والغرب غرب !! .. ورنا بنظرة يائسة ، وكأنما رنت فى أذنه كلمة فتاته التى لا ينساها .

قال صديقه : بل عندى لك فتاة تجمع بين الشرق والغرب

قال : وأين هى ؟!

ـــ انها فى الشمال من لندن ، على مقربة من اكسفورد ، انها بنت تاجر (شرقى) ، كبير ، هو عميـد جاليته ، فى تلك الناحية، إنه فلان ، أنت تعرفه، لقد رحلت إلى هناك بمناسبة.. أتذكرها ؟ .

ـ كيف لا أذكرها ، وأذكر أيضاً فتاته التى كانت زينة تلك المناسبة . كانت كالطاووس المنفوش وهى ترفـل بثوب السهرة فى تلك المناسبة التاريخيـــة . إنها يوم دخلت القاعة اشرأبت الأعناق إليها ، وأخذ كل منهم يمتع ناظريه بالتأمل فيها

إذن ، وما العمل ؟.

دعنى أفـكر قليلا .

. . .

ولـكنه جرىء وفنان ، لم يمهل صديقه الـكبير ، كان فى اليوم التالى يحمل بين يديه كتاباً ، ويطرق باب صديقه . دخل عليه منتشياً ، وقال : اسمع ، هذه القطعة الأدبية .

وقرأ عليه كتاباً منه موجهاً إلى والد الفتاة ، يطلب فيه يد الفتاة ، ولكن ببلاغة متناهية ، ولباقة فائقة ، ووقار يضمن له خط الرجعة .

ضحك الصديق إعجاباً ، ووافق من حيث المبدأ .

كان الجواب ، استدعاءه بالقدوم ، ليجتمع الخطيبان وليتعارفا .

وفى يوم من أيام الأحد ، كان صديقنا يقطع حوالى ٤٠٠ ميل شمالا .

وقصد البنسيون الذى عينه الوالد ببرقيته حيث حجز له فيه مكانا . فحين وصوله اتصل به بالتليفون ، فقال الوالد أنه قادم اليه حالا . وبعد نصف ساعة كان الوالد وبصحبته ابنته . يزوران الخاطب العزيز .

بعد المجاملات المعتادة فى مثل هذه المناسبة ، استأذن الوالد بالانصراف تاركا الخطيبين للتفاهم أو عدمه !!..

قضيا ساعتين فى حديث ، كل منهما كان يسعى للتأثير فى الآخر ، وكانت عدة أسئلة واستجوابات ، ونظرات ، وبعض العواطف المقتضبة ، ثم دعوة للعشاء فى مدلند أوتيل ، وفى آخر الليل ، كانا يمشيان جنباً إلى جنب يقطعان الطريق الطويل إلى بيتها ، وحول البيت كانا يلفان ويدوران ، يتحدثان ويتحدثان

وكأنهما يريدان أن يتخذا من سكون الليل الشامل ، وعدم الضوضاء النهارية فرصة ليسير كل منهما غور الآخر، ثم سارت إلى بيتها مودعة وداعا حارا . وعاد إلى بنسيونه ، غارقا فى آمال وأحلام .

كان يرى أن هذه الفتاة ذات التعليم الفائق والعقلية الطاغية . . أصبحت لعبة بين يديه . . أصبحت طوع بنانه ، بل أثر عليها بحسب رأيه التأثير المطلوب . .

كانت فى الصباح تأتى إلى البنسيون صحبة أبيها ، وبعد هنيهة يتركها الأب ، ذاهباً إلى عمله ، وتشارك فتاها طعام الإفطار ، ويذهبان يجولان فى الأسواق ويزوران أهم المعارض الفنية والمكتبات العامة والأماكن التى تستحق الذكر والمشاهدة ، كان يشعر أنها سعيدة إذ تظهر معه ، وإذ تريه كل شىء ، وإذ تقضى معه أطول وقت ممكن . كانت كأنها لاتريد تركه لوحده ، لئلا يشعر بالملل ، أو لئلا يتعرف إلى أحد قط . .

قضى يومين وودعته بقبلة حارة ، على أن يعود فى الأحد القادم . .

كان كل أحد يقطع ٤٠٠ ميل ليظفر بالتحدث إليها ومناجاتها وليعقد فى القلوب الألفة والتفاهم والاحترام . كانت إذا اجتمع

فى بيتها جمع ، واندمج خطيبها فى الحديث تتوجه إليه بعينين ملؤهما الانصات والتقدير ، فكان من نظراتها يستوحى كل ما يجعله يظفر بالاحترام وتملك ناحية الموقف فى كل جدال فلسفى أو اجتماعى أو سياسى أو دينى . كانت تلازمه كظله ولا تفارقه إلا عند النوم ، فاندمجت بينهما العواطف اندماجاً تاماً ، وأصبحا يشتاقان إلى يوم الأحد اشتياق الدنيا إلى النور فى البكور .

وبعد شهرين من الاستمتاع بلقاء الآحاد ، تلقى صاحبنا أمراً بانتهاء أجل البعثة فى بريطانيا ، بعد أن فقد الكلام والدعاية كل فائدة ، فقد قرر شعبه الكفاح الجدى واستخلاص حقوقه بالقوة مهما كلف الأمر ، فإما حياة راضية ، أو . . . ومهما كانت النتيجة ، فليس فى شرعة هذا الزمان أن يأخذ شعب مضطهد مظلوم أى حق بالحجة والجدال والشكوى ، وإذا لم يدعم هذه جميعها بالدم والتضحية وقرابين الفداء ، فسيبقى الظلم يحيق بكل شعب مستكين يؤمن بالعدالة البشرية والحقوق الاجتماعية وهذه الألفاظ التى لا معنى لها فى قاموس الطغاة العتاة .

رحل صاحبنا فى أقرب ميناء إلى بلدة خطيبته ، وكانت خطيبته وأبوها من وداعه ، وكانت دموع وكانت قبل ، وكانت عهود على الوفاء ، وانتظار الوقت المناسب للانضمام النهائى إلى بعض . .

عاد إلى مصر وبقى فيها مدة ملحاً على الهيئات المسئولة بإلحاقه بجموع وكتل الثوار الذين يتقدمون لحومات القتال لانتزاع استقلال البلد ، ولكن ، دون جدوى ، كانت الهيئة المسئولة عن تصريف الأمور تريد إعادته إلى البلد الذى أتى منه موفدا بصورة رسمية من الحكومة التى ينتمى إليها ، ولكن كان يصر على أننا كلنا فى الهم شرق ، وأنه لن يكون لدى حكومته مانع من الانتقال من الدفاع بالقلم والقول إلى الدفاع كأى جندى فى ساحة الحرب ، ولكن مع هذا أعادته الهيئة المسئولة إلى حكومته ، فعاد .

وجلس يسمع كل يوم عن انتصارات الثوار فى الحركة التحريرية ، وعن دك الأعداء أينما ثقفوهم ، ويتلقى فى كل أسبوع حوالى أربع أو خمس رسائل من خطيبته التى ماتنى تتبع أخباره ، ويجيب عليها جميعها ، قائلا أن نداء الوطن الآن أقوى بكثير من نداء القلب ، وأنه لايستطيع تقرير مصيره إلا بعد أن يعرف ماالله صانع ببلاده .

كانت فتاته ذات ثقافة غربية تامة ، لاتعرف من لغتها الأصلية إلا كلمات متقطعة ذلك لأنها ولدت فى بريطانيا ، ونالت درجتها بالآداب من أكبر جامعاتها ، ولذا كانت رسائلها قطعاً أدبية رفيعة ، وحين عرفت اتجاه خطيبها قدرت شعوره

كل التقدير وأخذت تلهب حماسته . برسائل من نار ونور . وتشجعه ، وتعرض عليه أن تشترك معه فى جهاده جنباً إلى جنب ، مقسمة أنها ستتحمل فى سبيل ذلك كل عبء ، ضاربة الأمثال كيف أنها يوم كان على كل من يعيش ببريطانيا وقت الحرب أن يساهم بأى مجهود ، أنها كانت ككل بنت جامعية تخدم فيما يتعين عليها أن تقوم به من خدمة للجيش ، وتطوف لتجمع الهدايا ، والإعانات ، وكل مامن شأنه أن يدخل الاطمئنان على قلوب الجيش ، فى أن أمته وراءه تشعر معه ، وتعين عائلته وتخفف عنها هول الحرب ورزاياها وكوارثها .

كان يشعر أن هذه المخلوقة فلتة من فلتات الطبيعة ، وأنها توحى اليه الشجاعة والحماسة ليصارع الدنيا فى سبيل الحصول عليها ، وكلما تصور أنها بجانبه تجاهد ، وتنتقل من ميدان لآخر لإلهاب الشعور العام وتقوية الروح المعنوية والاستماتة والفداء كلما تصور إلى جانبه خولة ، أو هنداً ، أو أسماء .

قر عزمه على أن يترك عمله الرسمى الذى ما هو أكثر من روتين يستطيع أى متخلف عن الجهاد أن يقوم به ، وفى صباح أحد الأيام جمع أوراقه ، وذهب بمقال إلى وزيره الذى كان يعمل معه ، يستحلفه فيه أن يدعه ليسافر حيث يذهب الأحرار للدفاع عن أهله وبلده ، فإما مات شهيداً ، أو عاش عزيزاً

كريماً ، وهو فى الحالين رابح !. أبى عليه وزيره ذلك . واستمهله وبعد أسبوعين ، قدم ملتمساً آخر ، فاستمهله الوزير للمرة الثانية .

وبعد مدة أخرى بسيطة تقدم حازماً باتاً أنه خارج عن طاعة الوزير لو أبى عليه هذه المرة الموافقة على طلبه ، فهش الوزير وبش ، وقال بعد أيام معدودات سأرسلك أنا ، ببعثة للغاية التى تروم فانتظر إشارتى ، وفى خلال هذه المدة جميعها كان يتصور دائماً نفسه يحارب وخطيبته فى كل جبهة ، ويهزم الأعداء ، ويقدم لوطنه خدمة الأبطال الفدائيين .

بعد أيام معدودات كان صاحبنا يرافق حملة ، يرافق جيشاً لمساعدة الأحرار الثائرين ، ثارت أخيراً الكرامة والحمية الشرقية ، فأخذت بعض الدول ترسل حفنات من رجالها وجنودها وشبابها للاشتراك فى معمعة الحرية هذه ، فمنهم من دافع دفاعاً مجيداً ، ومنهم من كان باستطاعته تقديم مساعدات أكبر ولكنه تلكأ وتقاعس وتململ ، ومنهم من كان يستطيع أن يكون حقاً وفعلا عاملا هاما فى النصر وسحق قوات الأعداء ولكنه أبى واستكبر ، وكان عاملا هاماً جداً فى فشل الحركة التحريرية ، وتسليم البلاد لقمة سائغة للعدو .

وهذه المأساة قصة أخرى سنقرأها على ضوء التاريخ

والوقائع المرة على حدة ، هذه مهزلة التاريخ الحديث ، ومهزلة الشرق التى نكست رأسه وجعلت الذل والاستكانة يخيمان على كل أبنائه ، إنها كانت درساً قاسياً هدب الأعصاب وجعلت خيبة الأمل واليأس يستوليان على النفوس فتهزل وتضؤل ،

كان صاحبنا ينتقل فى الميادين بوحى وروح فتاته ، يثير الهمم ويكتب المقالات الطوال ويسجل الأمجاد ويخلق أبطالا لقصصه ، ويدون الوقائع وينشرها على العالم ، على أمل أن تكون صفحات الأمجاد هذه نبراساً لكل شعب مناضل حر مضطهد ، يأبى الضيم والذل والعار .

وعاد مع حملته ، فاشلا ككل حملة ، ومع ذلك ، كان يشيد بالبطولة والشجاعة والفداء . على أمل رفع الروح المعنوية . والاستثارة لإيقاظ الضمائر الهاجعة ، للعوده فى جولة أخرى لاسترداد الشرف المهان والأنوف المرغمة فى التراب ، والأخذ بالثأر ، الذى هو من تقاليد الشرق الأبى ، ومع هذا فظل خطيبته لايزال ملازمه ، ومازال الأمل يداعب خياله .

* * *

كان لايزال يتلقى رسائل فتاته المشجعة ، ولكنها تحولت من حماستها الآملة بالنصر إلى رثاء وعطف ومواساة ، تحولت حرارتها إلى ألفاظ جامدة ، باحثة عن المصير والمستقبل الذى

ينتظر شاباً مندفعاً آملا ، شاباً أصبح كباقى أفراد أمة مغلوبة على أمرها ، ضاعت آمالها هباء ، وأصبح التشريد والعويل والبكاء والاستغاثة تنبعث من كل نفس، وأصبحت مسئوليات كل فرد متشعبة ، لابد لكل مستطيع أن ينفح أهله وجيرانه وأبنـــاء عشيرته بما فيه بعض كفاف أو سد حاجة دامية ناهشة . .

أصبحت اللهجة تشعر فتاها من طرف بعيد بمعنى التساؤل عن مدى مسئولياته والتزاماته ، أصبحت اللهجة بعد أن كانت متعلقة به بدون شرط أو قيد ، مستعدة للسكنى معه فى خيمة فى وهج الصحراء اللافح ، وتحت السماء والطارق ، وأينما حل وارتحل ، أصبحت اللهجة الآن فيها بعض التحفظات والاستفسار عن ماهيـة التسهيلات والأحوال المعيشية التى سيواجهانها فيما إذا قدر لهما الاقتران والعيش الأبدى، أصبحت ترى أن هذا الشرق ، الذى تنتمى (فى الأصل) إليه ، لايستحق أن يعلق عليه العاقل آمالا جساماً ، مادامت دوله تفشـل فى حملة بسطية ، فشلا تاريخياً ، ترى أن هذا الشرق مسكين ، هو لعبة ، يتقدم بغير وعى ولاحساب حيث ينبغى الإحجـام ، ويحجم حيث ينبغى الإقدام .

كانت فى الواقع تتكلم بالحقائق السافرة ، ولـكن الحقيقة

كانت فى كل عصر وزمان مرة قاسية ، فتأثر وغلى دمه ، وأخذ يرد عليها جوابات قاسية ، ذاكراً ، أنه وهو العالم بخفايا المرأة وأنها المتلونة التى لم تكن إلا كتلة من إثرة وأنانية فى كل زمان ومكان . لم يكن فى رسائله السابقة طالباً . بل كان يذكر لها مافى هذا الشرق ، من نظافة ليست بنظافة الغرب حقاً ، ومن مدنية ليست بمدنية الغرب فعلا ، ومن ثقافة وحياة اجتماعية لاتقارن بما فى الغرب ، فعاد يذكرها بكل ماقال ، ويذكرها أنها رضيت بكل شىء على أسوأ الفروض والاحتمالات ، ومع هذا فلها الخيار فى كل حال .

شعر أن رومانتيكية الصحراء ، وعيش الأحباء فى خيمة لايكون قط إلا عن حب جارف خارق ، وأن العربية ، أو من سرت فى دمها الإثرة الغربية والصخب الغربى والنعيم الغربى مهما حاول أن يدلس ويتظاهر بحبه للخيمة والصحراء ، لابد وأن تتبخر هذه الأحلام ، وقد لاتعيش الغربية فيها إلا فترة بسيطة من الزمان . لتبعث فى نفسها روح حب المغـــامرة ، والمباهاة بالمغامرة وعند ماتفيق وتلمس الحقائق قـد لاتطيق أن تستمرىء العيش والبقاء فى هوة فاصلة عميقة يفصلها عما اعتادته وألفته منذ نعومة أظفارها .

كان يحسب مثل هذه الاحتمالات وأمامه شواهد عديدة

من أصدقاء تورطوا بالاقتران بغربيات فعاشوا طول حياتهم غرباء ، إلا شواذاً لاحكم عليهم ، ولكنه ظن أنه قد يكون من هؤلاء الشواذ ، وان حياته قد تنتظم ، وأن هذه الفتاة ذات الذكاء والتعليم والمواهب الكثيرة لا بد وأنها تعلقت به بعد اقتناع تام بالسعادة التى تحلم بها .

* * *

فى يوم من الأيام يستلم برقية منها ليوافيها فى مصر ، ومصر نقطة شرقية متوسطة !!.. فأبى موافاتها هناك ، وأصر إذا كانت تريد أن تراه حقاً فعليها أن تأتيه إلى حيث هو ، لابد من قطع ألف ميل أخرى بالطائرة .

أوفدت أباها ، نيابة عنها ، فاجتمع بصاحبنا الذى كان لا يزال مهدوداً من أثر النكبة والصدمة ، ذاهلا من أثر الفشل والخيبة ، ومع ذلك حدثه بآماله ، ومشاريعه المستقبلة ، فأبى التسليم بها ، وهو كما علمنا تاجر قبل كل شىء ، ثم رأى بلاداً ليس فيها حتى من بهاء ومظاهر مصر ، بل كانت بلاداً فى بدء نهضة ووثبة ومدنية ، فأبى حتى التسليم بالانتظار لمعرفة مدى وتطور هذه النهضة فى أقل عدد من سنوات التطور والنهوض فعاد ينقل إلى بنته ماشاهد ، وأن فتاها يعمل الآن ، ولا يعرف مدى نجاحه . . و . . . .

كان أول كتاب تلقاه منها بعد مواجهتها أباها . . أن

الشرق شرق

والغرب غرب

وأعاد إليها رسائلها التى تبلغ المئات عداً ، وبها من ضروب التدله والاستماتة والترامى والتدلل ما يجعل منها مجلداً ضخما لحب زائف .

وانقطعت سلسلة أحلامه بالغرب والغربيات ، وعاد ينكب على العمل دائباً ، يريد تركيز جذوره فى الشرق ، لينجح أولا ، مادياً ، ثم يفتش عن شرقية لا غربية ! ! . .

ونجح مادياً ، ولكن لا يزال يبحث عن شرقية ، لا أثر فيها ولا ميل للغرب .

وعاد يبحث بين الخيام والقبائل ، عمن تستطيع أن تشاطره نعاءه راضية مرضية ، هادئة ، لا أثر فى نفسها لحب ضجيج أو ضوضاء أو سهر ليال صاخبة عامرة فاسدة ، وربما عن فتاة لا يسهل إغراؤها واستسلامها . ولا تكون عرفت النور والحياة الرعناء والمدنية الفاسدة المفسدة ، عن حسناء ذات جمال حقيقى غير مزيف بطلاء وخداع وزيف ! ! . .

المحتويات

	صفحة
مغوار مغرور	١١
يا أكلن البرسيم	٢٣
أيكون الكلب أبرّ منى ؟	٣٣
عرس قلب	٤٥
إلى الخطيبة المجهولة	٥٥
نداء الحب ونداء المال	٧٥
المجاهيل الثلاثة	٩١
إنعاشات قلب	١٠٢
فنان يشقى بقلبه	١١٧
حب ديبلوماسى	١٣٥
أقرب الطرق إلى جهنم	١٤٩
أيتها الحسناوات الجميلات	١٦٥

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الثمن ٢٥ ص

مطبعة الاعتماد

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 072246232